مدونة أبو عبدو
لوزة
عبد الستار حتيتة

# لـــــوزة

قصص قصيرة

عبد الستار حتيتة

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
حروف

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

مدير عام النشر
ابتهال العسلى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• لوزة
• عبد الستار حتيتة
• الطبعة الأولى،
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف،
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية،
محمد منصور
• رقم الإيداع: ١٦٨٧٠/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولى: 978-977-718-492-2
• المراسلات،
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

16

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية لمبدعى مصر المتحققين

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
سيد الوكيل

مدير التحرير
سعيد شحاتة

سكرتير التحرير
محمود أنور

# لـــــوزة

3

4

# إهـــداء

إلى البرارى التى فى الأفق

.. كنا هناك!

6

# حكاية سالم

صوت الشاب بهى الطلعة، الماهر فى قيادة السيارات، سالم، يغنى على عزف مزمار رفيقه السودانى، عثمان، فى الوادى تحت الهضبة السوداء. كان له فى الحياة هدفان، حقق الأول، وهو تسديد ديون والده المتوفى، وفشل فى الثانى، وهو الزواج من ابنة عمه علياء.

لم يكن لسكان الهضبة الواقعة على الحدود أى مجال للعمل إلا أحد اثنين أيضًا: المخاطرة بتهريب البضائع، أو رعى الأغنام. وعلى هذه الحالة قرر سالم، المعروف بحديثه العذب ومواقفه التى تشبه مواقف الفرسان، الانتقال إلى العالم الآخر بطريقته، لكن لا أحد يعرف إن كان الجنود ألقوا به فى البئر حيًّا، أم ميتًا، بعد سقوط سيارته من قمة الهضبة إلى قعر الوادى.

نغمات تئن، تتردد من بئر ذات فوهة سوداء مدورة. يسميها أبناء القبائل الأشقياء هناك، البرزخ؛ من كثرة ما ألقت فيها السلطات من جثث المهربين القتلى.

تقع البئر في واد عميق تحت سفح الهضبة. وهي بلا قرار، لأن كل حبال النجوع المجاورة لم تصل إلى آخرها. كما لم تخرج منها أي روائح للجثث. كل من نزلها حيًا لم يخرج منها أبدا. أما المهربون القتلى، فتبتلع جثثهم جميعا ولا تكتفي.

صوت غناء سالم مع صوت مزمار عثمان يوجع قلب كل من يقترب من البئر. تسمعه يتردد في ليالي الصحراء المقمرة. يقال إن رفيقه هو من يعزف له، لأنه يعرف ألمه.

جاء عثمان إلى الهضبة السوداء لكي يعبر ويعمل طباخًا في الجانب الآخر من الحدود، لكن السلطات منعته من المرور لأنه لا يحمل تصريح عمل. تعرف على رفيقه سالم في بيت عمه المدعو العمدة نوح حين اشتغل راعيا للأغنام لديه في نجعه جنوب الهضبة، وبعد طرد سالم من النجع، تبعه عثمان وأصبح مساعدًا له في رحلات التهريب. وتعلم خلال ذلك العزف على المزمار البدوي الذي يصنعه رعاة الأغنام من البوص.

أنبتت دموع الزوار من ذوي المهربين القتلى أشجارا باسقة على حواف البئر، منذ زمن، في وسط الوادي الجاف. ولا أحد منهم يمكنه أن يجزم إن كان سالم وصاحبه قد ماتا قبل أن ينتهيا في البئر أم أنهما ألقيا داخله حيين. وعلى كلٍّ يزعم رعاة الأغنام أنهم يسمعون

سالم وعثمان يتناجيان في بعض الليالي بعد أن يتعبا من العزف والغناء في هذا البرزخ المظلم.

يقول سالم: هل رأيت يا عثمان كيف وضعتْ علياء ألواحًا لتحمينا.

فيرد عثمان: آه يا زول.. علياء بنت زينة.

يطلب منه سالم قائلا: اعزف مقطوعة علياء مجددًا..

فيجيبه عثمان: آه يا زول.. خلينا ننام شوية..

سالم كان في أول العشرين من عمره حين سقطت به سيارته من أعلى قمة الهضبة. له خصلات تهفهف على جبينه، ووجه أبيض مدور كقدح اللبن. له جرأة ورقة حديث إذا تكلم، وله صمت مهيب إذا سكت، وله مهارة في قيادة اللاندكروزر على الطرق الوعرة فوق الهضبة وداخل الوديان، وعلى بساط الصحراء. لكن آخر ما يذكره السكان هنا محاولته صعود الهضبة بمؤخرة السيارة، ليغيظ عمه العمدة، وما أعقب ذلك من عويل ولطم للخدود.

يرتكب الناس الأخطاء أحيانًا. لكن الخطأ هنا كان لا يمكن الرجوع عنه. خيّره عمُّه، بين الاستمرار، بصحبة عثمان، في رعي أغنام القبيلة في الوديان الماحلة، وبالتالي تزويجه علياء حين تكبر، أو، إذا أصر على رحلات التهريب، أن يخرج من بيته بلا رجعة، دون أن يكون له الحق في إرث والده المتوفى.

عمُّه رجل صارم عنيد لا يحب المهربين، ولا سيرهم البطولية، بل يبلغ السلطات على جانبي الحدود بتحركاتهم. وهو يحلم منذ سنوات أن ترشحه الحكومة ليكون نائبًا في البرلمان.

سالم تحول خلال خمس سنوات من صبى يتيم يعيش فى كنف هذا العم القاسى، إلى شاب يمتلك منزلا منيفًا على حافة الوادى وسيارة تويوتا لاندكروزر شهباء موديل ١٩٩٩ ذات قمرة مكيفة وصندوق عريض وإطارات مدببة الحواف. لها بوق إذا أطلقه طار النوم من أعين عذارى البيوت الناتئة تحت الهضبة وبنات النجوع المجاورة.

كل واحدة لا تنام إلا إذا تخيلت نفسها تهتز جوار سالم فى قمرة اللاندكروزر. وكل واحدة تصد خُطَّابها على أمل أن يخطبها يومًا ما، كزوجة أولى أو ثانية أو حتى رابعة.

البيوت على الحدود تبدو من فوق الهضبة كأنها أطباق صغيرة موضوعة على مفرش الفراغ الرمادى. وتمتد الأرض منبسطة من هناك، حتى السماء المائلة. ويمكن لمن يريد، أن يُرجع البصر مرة أو مرتين، لكى يرى تحت الأفق باب السجن الممتلئ بالمهربين.

كبرت علياء وازداد ثراء سالم وكبر خصامه مع عمه، وفشلت كل محاولات الصلح بينهما. أقسم العمدة نوح ألا يدنس ابنته بتزويجها ابن عمها إلى أن يتخلص من بيته الذى بناه من أموال التهريب، ومن سيارته التى اشتراها من أموال التهريب، وأن يعود لرعى أغنام القبيلة، معتذرًا. وحين اكتشف أن سالم يتبادل خطابات الغرام مع ابنته، عن طريق عثمان، طرد راعيه أيضًا.

عاش سالم حزينًا بانقطاع الأخبار بينه وبين علياء. لكن فى الأشهر الأخيرة، اتفق وإياها، بواسطة إحدى صويحباتها، على إشارة يقوم بها، فتعرف أنه فى طريقه لارتقاء الهضبة وجلب بضائع

من وراء الحدود، وإشارة أخرى تعلم بها أنه عاد سالما غانمًا. الإشارة هى أن يدور حول بيتها مثيراً التراب بسيارته دورتين باتجاه عكس عقارب الساعة.. هذا يعنى أنه سيخاطر الليلة بعبور الحدود الوعرة وارتقاء الهضبة السوداء وسط طلقات الأسلحة الرشاشة لحرس الحدود. أما حين يعود فى اليوم التالى فيدور دورتين، لكن باتجاه عقارب الساعة. هذا يعنى أنه عاد وأن حياته ما زالت تسير لميقاتها.

وعرف السكان بأمر الإشارة. وعرفها عمه، وعرفها حرس الحدود. وكان كلما تحرك فى اتجاه الحدود أو فى أثناء العودة منها، ألقت السلطات القبض عليه وصادرت بضاعته، وحبسته ثلاثة أشهر أو ستة أشهر بتهمة التسلل.

طال سجنه فى المرة الأخيرة بتوصية من عمه، حتى ظهر الصدأ على حواف سيارته وعلى أطراف رفيقه عثمان. كان الناس ينتظرون خروجه من السجن حتى يكون للهضبة معنى. ويقولون لصاحبه مازحين: متى يخرج ملح المدينة، صاحبك، يا زول..

ولكى يتجنب زحام الأهالى على باب السجن، أمر مأمور القسم بالإفراج عن سالم فجأة فى فجر يوم من أيام الخريف ذات الرياح الهوجاء. حين خرج لم يجد أحداً فى انتظاره غير عثمان وسيارته. توجها إلى بيتها.. ترجَّل عن التويوتا، ووقف يهتز تحت نافذة غرفتها كشجرة وحيدة فى بيداء فارغة. وقبل أن تشرق الشمس عرف العمدة بخبر خروجه حين أبصره فى غبش البكور واقفًا هناك، وفى البعيد تقف التويوتا وصاحبه ينتظر جوارها.

فتح العمدة النافذة وصاح وهو يدعك ذراعيه العاريين ليدفئهما من البرد: ها أنت خرجت لتثير المشكلات يا وجه النحس.. سيثقب جنود حرس الحدود جمجمتك بالرصاص قريبًا. امش واغرب عن بيتي يا جلاب الشبهات والمصائب. اغرب.

اختفى العمدة داخل غرفته لحظة، ثم ظهر رأسه مُجَدَّداً خلف ماسورة بندقية خرطوش. طاخ طاخ. أطلق عيارين فوق سالم الذى استدار واختفى بسيارته وراء الظلال. ضحك العمدة بهستيرية وصفق النافذة وحل الصمت.

وعرف السكان بما جرى عند بيت علياء. وبدأت الحياة تدب فى أطراف الهضبة وفى نجوعها. ماذا يمكن أن يحدث يا ترى بين العم الملتزم بتعاليم الحكومة فيما يخص التهريب والمهربين، وابن شقيقه الشاب المهرب الثرى الماهر.

وبعد يومين من هذه الواقعة خرج عثمان ينادى داعيًا الأهالى، كبارًا وصغارًا، رجالا ونساء، لوليمة يعدها سالم بمناسبة خروجه من السجن.

وفى المقر القديم المهجور لسوق الأغنام، فى ظهر الهضبة، ارتفعت سبع خيام من الشَّعر كل خيمة تسع لخمسمائة رجل. وخصص منها خيمتين للنسوة. وعمل الجزارون على نحر مئة خروف. ونقلت السيارات الناس من كل مكان. وبعد صلاة الظهر دخل الشبان بمئات من قِصَاع الأرز الأصفر المخلوط بالكركم وفى وسط كل قصعة قطع من لحم الضأن.

وبعد أن فرغ القوم من طعامهم ارتقى سالم برميلا قديمًا يشرف

على الخيام جميعها، وقال: هل تأذنون لى شرح حالى بنفسى. تعلمون أن أبى كان رجلا أبيًا، أحببتموه، ولم يخطئ فى أحد منكم. مات ولم يكن عليه دين ولو بقرش. مات تاركًا أغنامه وأملاكه فى أغنام أخيه وفى أملاك أخيه.. وتعلمون ما صنع عمى بى.. رفض القسمة لكى أسدد ديون أبى. جعل ميراث والدى من حقه هو. أراد أن يستعبدنى. هو عمى، دمى ولحمى. لكن ماذا أفعل!

وصمت سالم وقد غلبته عبرة. اغرورقت عيون الحشد بالدموع، وبدأوا يخرجون من الخيام ويقتربون من سالم الواقف بثبات فوق البرميل، كأنه خطيب مسجد، فيما الريح تحرك ثوبه الأبيض، وخصلات شعره الأسود فوق وجهه المنتفخ بالحزن.

وبدأ السكان وأهل النجوع المجاورة انتظار مغامرة جديدة حين أعلن سالم على الملأ أنه سيرقى الهضبة فى وضح النهار من صباح يوم غد لعبور الحدود متحديًا سلطان عمه، ومتحديًا بنادق جنود الحرس المراقبين على طول السلك الشائك. وفوق كل ذلك، قال إنه سيرقى الهضبة الوعرة صاعدًا بمؤخرة التويوتا، لا بمقدمها. ومن يريد أن يشاركه فى هذا التحدى المميت من سائقى اللاندكروزر والمهربين فليستعد.

لم يكن أحد يمكنه صعود منحدرات الهضبة السوداء ببوز اللاندكروزر إلا بشق الأنفس. كل من أمكنه التحكم بسيارته ذات الدفع الرباعى وهو يرقى الجرف ذا المنحنيات كان ينجح أحيانًا لأنه يرقاه ببوزها، لا مؤخرتها، كما يريد سالم.

يذكر الأهالى كيف سقط فى الخريف خمسة مهربين فى قعر الوادى.. حاصرهم حرس الحدود قبل أن يصلوا لحافة الهضبة من ناحية الحدود. يذكرون كيف احترقت بهم سياراتهم المثقوبة بالرصاص وهى تتقلب على المنحدرات واستقرت فى قعر الوادى، حيث أمرت السلطات بإلقاء جثثهم التى كانت تشبه طيوراً صغيرة مشوية بريشها المتفحم عليها، فى البئر دون تحقيقات، كما يحدث عادة.

فى صباح اليوم الموعود منعت السلطات الأهالى من الوصول لمشاهدة الواقعة، بعد أن بحثت طيلة الليل عن سالم، دون أن تعثر له على أثر، حتى فى بيته. اختفى بسيارته واختفى معه رفيقه عثمان.

قرب ساعة الضحى، دارت اللاندكروزر فجأة دورتها المعهودة حول منزل علياء، عكس عقارب الساعة، واختفت. وبعد برهة تردد صوت طلقات الرصاص فى المنحدرات، ومن هناك ظهرت سيارة سالم مجدداً وهى تهرّ وتزفر محاولة الصعود لأعلى بمؤخرتها، فيما كان بوزها ينتفض بقوة.

صعد الناس بجلابيبهم فوق أسطح البيوت. من هناك تبينوا سالم وبجواره عثمان، داخل قمرة اللاندكروزر. كانت السيارة قد قطعت نصف المسافة صعوداً بمؤخرتها. وبدا أنها عالقة بين الصخور. لكن فجأة واصلت نفض الحجارة والتراب من تحتها، وتحركت مصدرة صوتاً مكتوماً. ومن حولها كان رصاص الجنود لا يتوقف.

أصوات الأهالى خرجت بشكل عفوى من فوق الأسطح : هيلا هوب.. هيلا هوب. تنادى فى تحدٍ كأنها تستحث السيارة على الفكاك من المنحدر، والوصول إلى قمة الهضبة سريعًا. وقد كان.. وصل الإطاران الخلفيان إلى الحافة، لكن التويوتا أبت أن تتحرك أكثر من ذلك. شخر محركها من التعب، ثم همد. وفى اللحظة التالية بدأت اللاندكروزر تتدحرج متقلبة حول نفسها وهى تسقط من عل..

كان رجال السلطات، ومعهم العمدة، أول من وصل للسيارة المحطمة المثقوبة بالرصاص.. ولم يعرف أهل الهضبة ونجوعها، منذ ذلك الوقت، هل كان سالم ورفيقه عثمان حيَّيْن، أم أنهما ماتا جراء سقوط التويوتا، أم بسبب طلقات الحرس النارية.

فى الأيام التالية، كان بعض الأهالى يروون كيف سمعوا صوت سالم، يتردد مغنيًا على عزف مزمار عثمان داخل ذلك البرزخ المظلم. لكن حين ينادون من فوهة البئر لا يرد عليهم غير الصمت.

ازدادت عزلة العمدة عن الناس، وعن قبيلته، ولم يكشف أبدًا عما إذا كان سالم وصاحبه ألقيا فى البئر وهما على قيد الحياة، أم أنهما كانا قد ماتا. وتوفى العمدة بعد أن خلعته القبيلة من موقعه، دون أن يحقق حلمه فى أن يكون نائبًا فى البرلمان. أما علياء فما زالت تنتظر سالم ليدور بسيارته حول بيتها باتجاه عقارب الساعة.

16

# غنّى سكت

طلعتْ شمسٌ صباحًا باردًا. سحبٌ شعاعٌ بزغَ اختفى.. اشتعلتْ نارٌ انطفأتْ رغبةُ راعٍ.. جمع أغنامه فرعدتْ فرائصُ ارتعشتْ أُذُنُ كلبٍ هَرَّ.. طارَ صقرٌ طافَ رفَّ جال.. جبلُ صُخُورٍ شَوكُ نَبْتٍ خِرافٌ راع غنى سَكَتَ نَهَضَ هشَّ غنى صمت.

أصابتْ هدفًا غروبَ مساءِ شمسٌ سقطتْ.. رقدتْ. جبلُ صخورٍ سوادٌ هَمَدَ طَلٌّ تنفَّسَ بردٌ التفَّ لحافٌ..

ارتعشتْ عصا اختلجت أُذُنُ كلبٍ تنفستْ نعجةٌ اجترتْ هدأتْ دفأتْ استكانتْ اهتزتْ أُذُنُ كلبٍ تلفتتْ حدقةُ عَينٍ ظلامٌ تلبَّسَ بردَ ليلٍ هَمَدَ طلٌّ خطتْ قدمُ راعٍ غنى طاف غنى ثم سكت.

صبغَ سوادُ ليلٍ صوف نعاجٍ رقدتْ همدتْ دفءَ فراشِ عشبٍ.. دفء هسيسِ قطيعٍ كلبٌ تجوَّل فأقعى ما أقعى فتجول ثم سكن.

ثوب راع هفهف ضربت عصا هواء ليل صفرت أسنان راع فصفر ليل انسلخ.

تبدّى فجرٌ ضرع نعجةٍ شخبَ حليبًا أبيض شرب راع نهض هش هفهف ثوب راع طار صقر طاف جال جبل صخور شوك نبت خراف راع غنى سكت.

**السلوم ١٩٩٧**

# تل إمحيميد

جلس إمحيميد لكنه لم ير نفسه فوق التل. خاب الشتاءُ عاريًا للعام الخامس أعقبه ربيعٌ جديد ماحلٌ.. أغنامه جاعت.

واحدة فواحدة باعها. جفت الآبار. تهاوت خيام النجع. يرحلون، وهو لا يريد فراق التل الذى اعتاد منذ الصغر الجلوس فوقه ومراقبة عالم الصحراء الواسع!

أضاءت السماء. غمرت شمس البكور البيداء القاحلة. على المدى، بدت ظلال المهاجرين الذين غادروا صباحًا. رعاة وراء أغنامهم.. خلفهم نساء.. أطفال تحت غبار عربات الكارو. جمعٌ وجهته الأفق يهرب من عطش إلى عطش.

هنا وقف الشوك أسود جافًا. فوق التل جلس إمحيميد كما اعتاد طيلة عشرين سنة. ظلل عينيه. وتلفت مستكشفًا عالمه الأجرد

الآخذ فى الانهيار. اختفى المرتحلون؛ ابتلعتهم بطون الوديان. اتسعت السهوب.. الوحدة.. الخوف. شفاه متيبسة وطنين الصمت.

قرقعتْ عربة يجرها حمار. عليها كومة أطفال وامرأة ورجل عجوز ضامر كجذع ميت من قلة الماء مهموم غير قادر على هزّ شكيمة الحمار ليلحق بالركب الذى سبقه إلى المجهول. أعجزه الظمأ عن التفوه بكلمة لتوديع إمحيميد!

مرت عربة أخرى جوار التل. الحمار هذه المرة يثير مزيداً من الغبار مندفعًا إلى الأمام صوب السراب المتموج تحت الأفق كالماء.. صوت بكاء طفل يحاول جاهداً ترطيب فمه من ثدى أمه، بينما الأب يتلفت مذعوراً.

كرر إمحيميد المحاولة التى سبقه إليها أهل النجع قبل أن يقرروا الرحيل. ألقى الدلو فى البئر. راوح الرِّشاءَ مجدداً. الماءُ ثقيلٌ بالديدان والتراب والأعواد الجافة. طيلة الصباح وحلقه جاف.. تحجر فيه اللعاب.

هكذا استقر فوق التل يلهث مثل كلبه من العطش. رحلوا ما رحل.

ارتفعت الشمس دائرة بيضاء باهرة على بقايا خيام النجع المتهاوية. دارت قُبَرات برؤوس متوجة بالريش تصوصو وهى تقفز إلى أعلى كأنها تريد جلب الماء من السماء الخالية من السحاب. حطت بين غابات الشوك تُرجع الصوت تبكى.

أنهارُ السراب تماوجت وصبَّت ماءها الوهمي فما ارتوت الوديان الراقدة تتوسد الهضاب السوداء.

بعد الظهر بقي النجع كومة شوهاء تضربها الريح بالتراب. ليس غير خيمة إمحيميد في وسط الأنقاض.. زوجته وأطفاله.. حماره وعربته الكارو. كلبه ارتقى التل حاذى رأسه رأس صاحبه لاهثا بلسانه الطويل.

قبيل الغروب هبطتْ شمسٌ صفراء خلَّفتْ ظلالا طويلة وطيور تنفض أجنحتها من حرِّ النهار الذى ما انفك يطبق على الصحراء.

فى البكور مرت عربة إمحيميد محملة بخيمته وأطفاله وزوجته قاصدة الأفق.. ودَّع التل بعينيه، ثم أشاح: لا يريد رؤيته وهو لا يجلس فوقه! وبعد أن ابتعد لحق به سرب الطيور، إلى أن ذابوا جميعًا فى الحد الفاصل بين الأرض والسماء.

*سيدى برانى ١٩٨٩*

# لـــوزة

ألقت الشمس بنورها على الأرض.. بزغت من الأفق بأشعة صفراء دافئة فوق تل.. وفاضت على سهل مفروش بنوار برتقالى وعيدان ريحان طويلة خضراء.. برز حصى أبيض لامع كأنه مغسول لتوه حول مدرسة قديمة كانت فيما مضى منزلا..

فى واد مجاور رفَّ حسون وطار عاليًا منفضًا عن جناحيه بلل الندى. بين حقول الزرع ثمة طريق ترابية ترقد ملتوية كثعبان.. تمتد من المدرسة.. وعند زريبة قديمة مهجورة لم يبقَ من رسمها غير سور مهدمة جوانبه تتشعب وتختفى أصابعها الطويلة فى طيات رداء السهول الربيعى..

خطت لوزة فى أسمال بالية.. داست أديم الأرض بحذاء بلاستيكى. دخل تراب خشن فى جوانبه الممزقة.. رفعت وجها مدورًا أسمر وتساءلت:

- "ماذا لو طردني المعلم.. ككل صباح؟".

أغلقت عينين واسعتين على الفضاء الرحب أمامها. ثقلت قدماها ولم تقدر على المشي. تكاثف عرق بارد تحت طيات منديل أشهب متهرئ ملفوف على رأسها ومعقود تحت ذقنها.. زفرت بحرقة.. دار خيالها.. جدران متصدعة.. سبورة لا تظهر عليها الكتابة أبداً.. صخب، وصبية مشاكسون.. بنت سمينة منتفخة الخدين، جارتها في المقعد، تصرح لها من بين شفتين حمراوين ككل يوم:

- "امشِ يا بنت يا عفنة..".

ثم تبصق نحوها..

المعلم يكاد يتقيأ حين يرى شكلها البائس على وجه الصبح، يأمر مشمئزاً:

- "جاك القرف.. أطلعي برة.. يلّه.. لا تسدي نفسنا عن الشغل..".

لا تعي هي كلماته الحضرية الغريبة، بيد أنها تدرك أنها غير مُرضية البتة.. أمها تعطيها في صحفة لقيمات لتأكل وراء البيت، كيما يتغدى أبوها وأخوتها بعيداً عن خلقتها مطمئنين..

كل صباح يوم جديد، تحت السقف الصدئ لحجرة الدرس، تلملم وريقاتها.. قلمها.. كيس كتبها.. تثقبها أعين التلاميذ وهي تخطو منكسة رأسها بين صفي المقاعد.. تحت نافذة الفصل تجلس، تلاعب حبات الحصى ساهية. وتزعق أصوات رقيقة من الداخل:

- "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ..".

فكرت وهى لم تزل واقفة فى الطريق، بجوارها ثلاث عوسجات خضر؛ قصيرة وطويلة والثالثة أطول..

بعيداً، عند آخر الدنيا، توسَّد التلال ضبابٌ صباحى أبيض كدخان شاذًّ فوقه طرف سماء عريضة قرمزية.. مشت عند مفرق الطريق.. بجوار سور زريبة متهالك. سندت رأسها.. غرزت رأسها بين ركبتيها.. طوقتهما بذراعيها وعصرت نفسها بقوة..

.....

- "مالك يا لوزة..؟".

قال الصبى فضل جارها.. ضامًّا يده البضة على حقيبة سوداء مصنوعة من الجلد، وأردف:

- "لا تبكى فى وجه الصبح.. هكذا..".

نظرت نحوه. كان ضائعاً فى ضباب عينيها. أخفت سحنتها الحزينة.. أنَّتْ حابسة حشرجة فى صدرها. انتفض جسدها الصغير كطير ذبيح..

وقف فضل برهة صامتاً بسرواله الأسود النظيف الجديد وقميصه الأبيض الناصع وبشرته الحمراء العفية، بينما خصلات شعره الأصفر تهفهف على جبينه العريض.. ثم عوج ركبته وراح يهدهد عليها بجانب حقيبته.. قائلا:

- "أنت تكرهين المدرسة.. نعم والله.. تحبين الهرب.. هاهاها.. تبكين.. تبكين.. تبكين. كل يوم تبكين عند هذه الخرابة.. هه؟ أو لعلك لا تكتبين واجبك.. هه؟ هه؟".

هزت رأسها نافية إهمالها واجباتها. حثها بغير مبالاة، وسلك طريقه إلي المدرسة.. نهضت، وفي ثوب ذى وردات كبيرة باهتة وسروال قصير مشت وتراب الطريق الذى طحنته أقدام المترجلين، وحوافر الحمير، تسوخ فيه ساقاها النحيلتان..

غني فضل بصوت عال وهو يسير أمامها. راح يكور شفتيه على وجه كالكرة، ورأسه يتمايل فوق كتفيه العريضتين..

دقتْ مطارق صاخبة داخل رأسها. صفرت أذناها. ضاع الطريق تحت قدميها. انعقدت المرارة فى حلقومها وتندى خداها.. مدت يداً مرتعشة مرتخية تدارى بطرف منديلها صديداً أخذ ينزُّ من أذنيها، متمنية لو كانت تسير فى وجهة غير وجهة المدرسة. آه.. أو لو كانت وحدها.. لا يكشف سرها مخلوق.. لكن جدران المدرسة بانت، والعلم هناك يرفرف.. انكمشت على نفسها. صعدت أدعيتها من بين شفتيها اللمياوتين:

– "يارب اخسف بى الأرض.. يارب.. ياارب.. يااارب.."

.........................

دق جرس المدرسة الصباحي. دق قُليب لوزة تحت ردائها الرثّ. صعد الدم ساخناً تحت منديلها الأشهب.. صمَّ الطنين أذنيها.. نزَّ صديد دافئ فوق صدغيها.. مالت بها الأرض وعجزت عن الخطو.. بيد أن تدافع التلامذة نحو ساحة المدرسة التى ينظفونها كل يوم ويحيطونها بأحجار صغيرة قد سار بها حتى وضعها فى الطابور بين البنات.. فى مكانها المعتاد.. نادى المعلم، مشيراً بعصاه الطويلة:

- "النظام.. النظام.. خذوا أماكنكم.. حاذوا.. اثنان.. اثنان.. صفًّا.. انتباه.."

أدوا بعد ذلك تمرينين رياضيين ثم خرج أربعة تلاميذ من السنة النهائية. اصطف ثلاثة خلف رابعهم أمام علم مربوط فوق صار خشبي نخره السوس وشققته شمس الصيف الحارة..

رفع الأولاد أيديهم معظمين عدا لوزة.. لسانها كان يلهج في مرارة لعابها:

- "يااااارب اخسف بي الأرض.. يااااا.."

كررت الحناجر الصغيرة الكلمات التي يقف لها المعلم مثلهم مشدوداً لأعلى انتباه رافعًا وجهه حين يرددونها تحية للعلم تحت شمس صباح كل يوم جديد.

في حجرة الدرس تكومت البنات فوق أفخاذ صويحباتهن، تاركات لوزة في قمطرها ضئيلة على مقعد خال ومنضدة بنية مجرحة بشخبطة الأقلام.. همهم التلاميذ وصخبوا مخرجين كتبهم وأقلامهم. واطمأن المعلم إلى مكتبه مسنداً مرفقيه أمامه، ثم طرق بعصا صغيرة من الخيزران فنزلت سكينة الصمت على الفصل.. جال بناظريه متفحصاً.. ثم توقف عند وجه واحدة لم يكن يتوقع لها أن تحضر اليوم:

- "تعالِ يا لوزة.."

رمشت عيناها.. ارتعدت أطرافها.. فغرت فاها موشكة على البكاء.. التفت الأولاد بوجوه فضولية نحوها مدركين مسبقًا مصيرها اليومي؛ الطرد:

- "تعالى.. لا تخشى شيئًا..".

قال المعلم راسمًا ابتسامة مشجعة تحت شارب أسود كث. اقتربتْ حتى وقفت جوار المكتب، فسأل:

- "لِمَ أتيتِ اليوم؟".

انعقد لسانها ولم تنبس بشيء:

- "الجواب.. الخطاب ذاك الذى أعطيته لك بالأمس.. أين هو؟".

ثم أضاف:

- "أعنى ألم يأخذك أبوك للوحدة الصحية؟."

لم تفهم البُنَيَّة شيئًا من حديث الأستاذ ذى اللهجة الغريبة عن سمعها، بيد أنه لف ذراعه حول كتفيها موصيًا إياها بصوت خفيض:

- "همم.. لم يصحبك أحد للمدينة.. طيب.. لا تحزنى.. خذى حقيبتك وعودى إلى منزلك.. ودعى أحدًا.. انظرى هنا.. أين الورقة الآن.. الجواب.. مع والدك..هه؟ همم.. قولى له يا أبى خذنى للوحدة الصحية فى المدينة كى يعالج الطبيب أذنى.. قولى له إنه جواب للصحة.. ها.. ارفعى وجهك.. لا تحزنى..".

.....

أرسلت شمس الظهيرة خيوطًا فضية ساخنة، فوارت ظلال المدرسة والعلم. لم تجد لوزة حيلة لاتقاء صهد منتصف الظهيرة غير حقيبة صنعتها لها أمها من كيس طحين عليه كتابة أجنبية ظللت بها على رأسها وجلست تنتظر فضل.. ومن بين همهمات المعلم

الغامضة، أخذت كلمة "لا تحزنى" وأنشأت تديرها فى رأسها فرحة..

فى طريق طويل مترب متعرج وسط حقول القمح الأصفر كانا يسيران متمهلين عائدين لبيتيهما البعيدين لا يعترض طريقهما غير أبو دقيق قاطعًا ضاربًا بجناحيه المزركشين من وردة لوردة:

- "بالأمس أعطانى المعلم.. ورقة..".

قالت وابتسامة الأستاذ ونبرته الحانية ولمسة يده على كتفيها، لا تبرح مخيلتها، ثم أردفت حزينة:

- "أعطيتها لأبى.. نظر إليها، ثم ألقاها فطارت مع الريح..".

أعاد فضل قولها بغير مبالاة ناظرًا لساعته وهى تبرق فى عينيه تحت الشمس:

- "يعنى طارت مع الريح..".

عند السور الذى هدمت أطرافه السيول الموسمية كان مفترق الطريق.. مشى فضل ناحية بيتهم المشيد بالأعمدة الخرسانية، وتوقفت لوزة مطلقة من تحت رمشيها السوداوين نظرة ناحية خيام نجعهم البعيدة.. وضعت كيس كتبها على الأرض.. جلست جواره مرتكنة بظهرها للحائط.. فكت منديلها.. نظفت أذنيها من الصديد.. حدقت فى الفضاء الرحب أمامها.. ثم غرزت رأسها بين ركبتيها.. طوقتهما بذراعيها وعصرت نفسها بقوة.. كانت الشمس تنير ما حولها.. بينما الجبال ملفوفة عند الأفق فى ضباب أبدى..

*السلوم ١٩٩٣*

# رتـــابـة

دارت الشمس إلى الغروب. دارت الشوارع الترابية المتعرجة فى المدينة الصحراوية المحاطة بالغبار.. ولم يعد الجندى ابن معلمة المدرسة الصبورة، مريم، فى إجازته المعتادة من حراسة الحدود.

امتدت ظلال الأبنية الحجرية الثقيلة. ألقت بهدأتها فوق طرقات البلدة. فى هذا الوقت من المساء يرحل سكان النجوع إلى نجوعهم وتهدر سيارات الدفع الرباعى محملة بالطحين والأرز والركاب.

فى شارع جانبى ابتعدت قرقعة عربة خشبية عتيقة يجرها حمار قصير يهز أذنيه العريضتين فى دوامات ذباب المساء اللحوح.. ترك التجار والمتسوقون القمامة تغطى جوانب الطرقات ومضوا قبل رحيل الشمس إلى صمت البيداء المحيط بالمدينة النائية فى أقصى طرف من العالم.

أطبقت مريم جفنيها مُطْلقة زفرة يائسة بعد أن أطلت على الشوارع الفارغة الميتة الغارقة في غبش الظلام وتذكرت مدينتها البعيدة الصاخبة التي يشقها نهر وشوارع وأضواء وسيارات لا تنام. فكرت كيف ضحت بالانتقال إلى هذه الصحراء من أجل فرصة العمل الوحيدة التي كانت أمامها؛ معلمة في مدرسة بمدينة صحراوية تبعد عن مدينتها الأم بمئات الكيلومترات. مدت يدها وأمسكت بأذن كوب الشاى الذى يتصاعد بخاره برخاوة.

ارتشفت رشفة قصيرة ثم تلمظت بفمها دون صوت ومسحت بكفها على شفتيها الرقيقتين، وأدركت فى لمحة آثار السنين على ظهر يدها.. تجاعيد فوق عروق خضراء تنبض بالكاد. هى نفس اليد التى كانت تكتب رسائل الغرام المفعمة بالحياة والأمل إلى حبيبها حين كان شابًا يافعًا فى لباس عسكرى يحارب على الحدود. وهى اليد نفسها التى ملّت كتابة خطابات المناشدة للحكومة من أجل زيادة معاش التقاعد والإصابة لزوجها، دون جدوى.

فجأة هدر محرك قوى لسيارة دفع رباعى فى الشارع الجانبى نفسه الذى تقع فيه شقتها ثم ابتعد الصوت إلى داخل الصحراء..

تذكرتْ مريم كيف كانت تأتيها الأنباء السيئة فى مثل هذا الوقت وفى مثل هذه الأجواء، خاصة حين يصاحب كل هذا صوت محرك من هذا النوع يهدر فى الطرقات. هكذا جاء زوجها، جندى حرس الحدود فى ذلك الوقت، من الجبهة قبل عشرين عامًا مصابًا فى

ظهره برصاصة أعجزته عن المشى حتى فقد الأمل فى الوقوف على قدميه مرة أخرى.

والآن مرت سنة منذ تطوع ابنها فى الجيش فى نفس فرع حرس الحدود، كأنه يريد أن يشغل مكان أبيه، وها هى الأسابيع تتلاحق دون أن يأتى فى إجازته المعتادة. تذكرت حين قالت له "لا.. لا تذهب"، كيف أجابها بالصمت وهو يحزم حقائبه وكأن قرار التحاقه بالجيش قرار إلهى لا نقاش فيه. حينها ارتفع صوت والده من فوق السرير فى الداخل ينهرها مستنكراً فزعها. ابتسمت ابتسامة حزينة حين استرجعت ملمس قبلته على ظهر يدها فى مثل هذا الوقت من بداية الليل، وحدقت من خلال الشرفة فى الطرقات الخاوية الممتدة حتى سور المدرسة.

بعد قليل صاح طفل بجوار المبنى. ثم نادت عليه امرأة بدينة من شرفة مجاورة.. فى الليل لا يتبقى فى المدينة إلا سكانها الغرباء عن الصحراء ممن لم يجدوا عملا إلا الحكومة هنا، أو جاءوا هاربين لأسباب شتى. غرقت مريم فى أفكارها السوداء وقد استسلمت للحياة مع زوجها القعيد فى هذه المدينة التى تتحول ليلا إلى كابوس من الفراغ والوحشة والشوق.

أنَّ زوجها فى مرقده من داخل الشقة.. بعد قليل أخرج غمغمة مبحوحة غير مفهومة أعقبها صمت.. ثم صوت شىء انكسر.. تململت مريم فى مقعدها وأشاحت بوجهها.. خفضت رأسها مغلقة عينيها على حبات عقدها المطلى بلون ذهبى منطفئ..

صخبت موسيقى على رتم واحد بطيء من المقهى المجاور الذى يرتاده المسافرون إلى المدن المجهولة فى الجانب الآخر من الحدود.. هنيهة وانقطع الصوت، ثم انسابت دندنات على العود من المذياع.. غنى محمد عبد الوهاب أغنية حماسية عن الجهاد وتحرير الأرض.. همهم صوت من داخل المنزل. نادى زوجها المريض على شيء ما. ثم شكا متوجعًا.. وبعد قليل سكت.

كان ممدًا فى حجرته. حوله قنينات دواء مبعثرة وكوب زجاجى فى قعره سائل أصفر وفى طبق زجاجى حساء جزر مسلوق لم يمس.. ثنى ركبتيه فارتفع ثوبه الأبيض فى ثنايا أمامه. أدار رأسه الأشيب يمنة ويسرة ثم نادى محاولا الصراخ، بيد أن صوته خرج فى وهن:

– "ياا مررر.. يم..".

تحركت من مقعدها.. دخلت المطبخ.. عادت لحجرة الجلوس. نظرت لصورة شاب فى إطار أخضر.. وقفت برهة ساهية وبعدها جلست. وضعت وجهها بين راحتيها واستغرقت تتأمله..

مع دخول الليل والظلام أطبق الصمت بخيمته على الشقة الواقعة فى الطابق الثالث. حدق زوجها فى السقف.. هز نفسه عنوة لكن جسده لم يطاوعه.. فكَّر.. لم يسعفه عقله المنهك من طول التفكير والخيبة.. مد يده بعروقها الخضراء لزجاجة الدواء.. قصرت عنها.. رقرقت عيناه. غصَّ حلقه حزنًا. تمدد هامدًا وهو يسأل نفسه:

– "هل اقتربت ساعتى.. دون أن أراه؟".

تمتم والدموع تسيل من جانب وجهه. ثم أنَّ مرة أخرى وحاول أن يترك فراشه.. أنزل ساقًا إلى البساط. أنزل الساق الأخرى.. ثبَّت راحتيه على حافة السرير وخرجت من بين شفتيه أدعية واستجمع قواه وهبَّ:

- "بسسسسم الله!".

فتكوم على الأرض متشربكًا فى الأغطية محدثًا جلبة، حيث سقطت معه قنينات الدواء وطبق الحساء والملاعق..

سمعت رطمته، فعرفتْ محاولته البائسة. كان على بطنه مفرود الذراعين يبكى كطفل.. جاءته:

- "أواه عليك..أواه..".

احتضنت جذعه فى صدرها:

- "هووووب".

رفعته. مددت ساقيه وأراحت رأسه على الوسادة وسفت على رجليه الغطاء. تنهد والدمع يسيل على جانب وجهه مبللا ذؤابته البيضاء. وقبل أن تكمل تنظيف الأرض، ردَّد فى صوت يُسمع عنوة:

- "هككككذا.. إذذن حالى.. الآن.. يا مريـ..يـ..يـم.. أموت دون أن أراه".

فى الطريق كانت حقائب السفر على أكتاف الشبان الذين لا يملون الترحال تثيرها، وتدفعها بعد كل رشفة من كوب الشاى للنظر إلى الشارع الطويل المظلم لعله يأتى فى زيه العسكرى..

راحت تسترجع قسماته.. عيونه اللامعة السوداء ذات البريق الذى لا يخبو.. كأن شعلة فيهما لا تنطفئ. وتعكر مزاجها حين استعادت ما ذكرته الأخبار عن التأهب لحرب على الحدود. وقالت لنفسها:

- "آه.. يا ولدى العزيز.. لو تعود.. بين يدى الآن.."

ماتت كل حياة فى المدينة. اختفى لغط المسافرين المنبعث من المقهى.. وحلت طبقة إضافية من الصمت الثقيل الذى سيستمر إلى الصباح. قرب منتصف الليل دبَّت قدم على السلم بالخارج.. دق قلبها.. خفَّت كحمامة.. فتحت الباب.. رَنَتْ إليها القطة وهى تعبث فى سلة المهملات.. جلستْ فى الشرفة مجدداً. راحت تحتسى ما تبقى من الشاى البارد فى ظلام الشرفة..

*مرسى مطروح ١٩٩٤*

# نجمة القمر

لم أبدل فستانى منذ بداية الخريف. لا أعرف كيف تصفو السماء ليلة رأس السنة فأرى القمر ونجمته البراقة تتبعه. ربما كان حبيبى السبب. طوال أكثر من عشر سنوات، وكل ليلة، قبلما تدق الثانية عشرة إيذانًا ببدء عام جديد، يتطلع للنافذة ويشير للسماء ويهمس متحدثًا عن نفسه وعنى بصوت ما زال يرن فى قلبى كالوتر:

- "ها هو، وهى تلمع بجواره.. لا يفترقان!"

ويبعد القمر وتبتعد معه نجمته. فهل تمر الليلة.. ليلة رأس السنة دون أن يكون واقفا بجوارى، شابكا يده فى يدى، حبيبى هذا؟ لقد طردته فى بداية الخريف. كانت الدنيا تمطر والرياح تعول، وأنا أقف خلف زجاج هذه النافذة فى الطابق الرابع.. بينما

هو يحتضن الدب الأبيض -هديتى التى كان قد أحضرها لى- متعثراً فى وحل الشارع. بدا لى أنه سينكب على وجهه قبلما يختفى، مبللا بالماء خلف سور الساحة الشعبية وقد يرحل عن المدينة بلا رجعة!

وفى الحقيقة لم أطرده أنا.. لا أجرؤ. فقط سأل عقب عودته من العاصمة البعيدة.

- "هل تريدون منى أن أرحل. أعنى.. أما زلتم تريدون منى البقاء؟"

كانت أمى تجلس متكئة بمرفقيها الضخمتين العاريتين على مسند المقعد تنظر إليه بعينين شريرتين. أما حبيبى فلمعت فى عينيه الدموع وربما تجللت صورتى أمامه بالضباب لأنه خفض رأسه وظل هكذا ساكناً، حتى قطعت أختى الصغيرة الصمت بمداعبته، فمد ساقيه واسترخى بهيئته المتعبة الواهنة، مصعداً تنهيدة يائسة.

وبعدها ألقيت الدب على وجهه إرضاء لأمى، لكنها لم تكن راضية، فطردته خارج البيت بنفسى، بيد أنى لا أنسى.. استدار.. واجهنى، كأنه يستنجد بى كما أظن الآن.. همس لى:

- "لماذا؟".

لقد كرهه كل من بالبيت، خاصة أمى. وحتى هذه الليلة الأخيرة من هذا العام، بينما أنا أنتظره ليحتفل معى بالعام الجديد، ويدس يده فى شعرى وفى كم فستانى، أتعجب.. كيف كان يقطع خمسمئة كيلومتر، عبر الصحراء والريح والبرد والمطر لمجرد رغبته

في شرب كوب شاى من يدى.. يدى أنا فقط كما كان يؤكد بطريقة تقول أمي إنها مريبة!

وحبيبى هذا ليس حقيقيًا.. أى ليس كما قد يراه الآخرون! عرفته وأنا طفلة فى الصف الرابع الابتدائى، فيما هو كان طالبًا.. يأتى إلى بيتنا فيعلمنى الفرق بين الذال والزاى، والكاف والقاف وقراءة الجملة الواحدة بنفس واحد، بلا توقف. ظل يعلمنى فى بيتنا حتى كبرت وأصبحت طالبة فى الثانوية. أدركت ملمس أصابعه. ثم أصبحنا أشبكها فى أصابعى ونترك الكتب ونقف هنا، بجوار النافذة. يتطلع بعينيه الحالمتين للسماء بعد المطر ونكون عادة فى آخر شهر ديسمبر.. فجأة يسطع القمر وتلمع نجمته.

- "ها هو، وهى بجواره.. لا يفترقان.."

يقول، ويمسح على رأسى فأنظر إليه وأهمس له:

- "أنت حبيبى.."

فيمد لى يده، رغم فقره، بقطعة الشيكولاتة غالية الثمن:

- "عام جديد سعيد.."

ثم يضيف هامسًا مبتسمًا خجولا:

- ".. يا حبيبتى!"

منذ بداية فصول الصيف التى تعاقبت علينا طوال عشر سنوات علمنى، مع نسيم البحر الأزرق، ركوب الدراجة. لم أعد أسقط، بل أندفع بها للأمام بجرأة. ثم جعلنى، إذ أخذت أكبر، أطفو فوق ماء البحر، وأضرب ذراعى وقدمى، ولا أغطس، أو أغرق، كما كنت

أعتقد وأخاف. واليوم.. أين هو؟ بينما أنا أقف خلف النافذة أبكى، نجمة بدون قمر، والوقت يمر!

الشمس سقطت خلف بيوت الضاحية الغربية، وسحابة صغيرة سوداء قادمة من الأفق البحرى.. ونهاية السنة تدخل فى ساعتها الأخيرة.. فهل سيظهر القمر لينير السماء فتطمئن نجمته إلى جواره.. كما حدث العام الماضى حين عدنا فى وقت كهذا محملين بالهدايا. اشترى لى، رغم فقره، سلسلة ذهبية فيها قلب طالما أنعكس عليه ضوء المصباح، وأنا وحدى أذاكر دروس الثانوية العامة بدونه.

فى تلك الليلة، وطوال الساعة المتبقية من العام القديم، مكثنا نستعرض ما جرى وما سار ضاحكين. نطل من النافذة على الشارع. وأهمس له:

- "لا تتركنى، يا حبيبى، حتى إذا طردتك، وصحت فى وجهك: أكرهك أكرهك، فلا تتخلى عنى أبدًا، مهما جرى، ومهما أخطأت فى حقك.. فلا تصدقنى.. فقط لا تتركنى!".

ما ذنبى الليلة. أنا لم أطرده. عندما عاد فى آخر مرة من العاصمة جلسنا هنا، جوار النافذة، طلب منى كعادته حين يعود كوب شاى فأبدت أمى امتعاضًا ظاهرًا، لدرجة أننى خجلت من نفسى، فدخلت حجرتى.. بكيت لأنى لم أتمكن من عمل كوب شاى لحبيبى.. مجرد كوب شاى. مسحت دموعى وجلست جانبه، رغم غضب أمى. وكان هو يشعر أنه غير مرغوب فيه. أذكر كم كان منكفئًا

داخل نفسه. شعرت كأنى أجلس مع غريب.. غريب لأول مرة أراه!

- "ماذا بك؟".

سألنى بصوته الواهن الضعيف فلم يرد عليه أحد. أمى تجلس على المقعد العريض وأبى غائب فى العمل كالمعتاد، وأختى الصغيرة تلهو بلعبها على الأرض، وأختى الكبيرة تراقبنا من باب غرفتها المفتوح.

ابتسمت وأنا أدور بنظرى فى الصالة وكان يجب أن أبدى للجميع كم أنا مستهزئة من سؤاله إرضاء لأمى. هززت رأسى لأظهر كمن يعتبره مجرد شخص تافه لا قيمة له.. اغرورقت عيناه بالدموع. ورأيت السعادة تطل من عينى أمى. فأبديت له مزيداً من الكراهية. لم أتحمل أكثر. نهضت لأبكى بين وسائد غرفتى.. أعصرها وأكتم نفسى لعلى أموت.. ربما سمعنى أشهق وهو فى الصالة لا يعرف ما يدور..

لقد قررت أمى التخلص منه للأبد.. ولا أعرف كيف أقنعتنى بكلماتها ولمزاتها وغمزاتها على مدى شهور. ربما لو كانت وحدها فى هذا، لما كرهته. كان كل من بالبيت يبغضه ولا يريد أن يرى وجهه، ما عدا أختى الصغيرة طبعاً لأنها ما زالت طفلة. والليلة إذ أفتح صدرى، أجد البذور تتفتح والبراعم تكبر وتورق منها السيقان وتمتد الجذور لتنبض، وتنبض.. بذور الكراهية تجاهه التى شاركت فى زرعتها أيضاً خالاتى وخالى وزوج خالتى المنقبة وبعض صديقاتى كذلك.. أما أختى الكبيرة فلا أنسى دورها العظيم إذ تمسك يدى برفق، وتبدأ فحيحها الخافت، ليتسلل سمها فى عروقى ويعمى قلبى:

- "تخيليه، كلما جاء. إنه فقير ومفلس ولا يملك أسباب الحياة لا يزيد عن كومة قاذورات نتنة. شمي رائحة العفن؛ عفنه.. شميها وأنت حرة.. لكنك حين تكتشفين حقيقته ستصابين بالغثيان.. عندها تقيئيه في الحمام وشدى عليه السيفون.. إلى البالوعة".

تجاوزت الساعة الحادية عشرة والنصف.. الشارع يلفه الظلام. أنظر وأنظر فقد أتبينه حاملا دُبي الأبيض بين ذراعيه، واقفًا عند سور الساحة، متطلعًا لنافذة بيتنا، فيهتز جسدى بغتة، وألتفت حولي. هل صحت:

- "حبيبي.."

وأمسح دموعي لأرفع رأسي للسماء الواسعة الصافية.. القمر هنا يتزحزح رويدًا رويدًا تجاه الغرب، ونجمته تتبعه.. لا يفترقان، بينما النسمات الرقيقة تدفع على مهل السحابة السوداء القادمة من بعيد.. هل ستفرق بينهما.. حبيبي البارد القذر لن أغفر له بعده عني. سألعنه كما لعنته قبل عامين، عندما جاء ابن عمتي طالبًا يدي؛ فوافقت.. أما هو فاختفى. هذا ما استطاع عمله.. كانت المرة الأولى التي يغيب فيها أسبوعين منذ كنت طفلة. كانت المرة الأولى التي لا أسمع فيها صوته ولو عبر الهاتف.. لماذا لم يمنعني؟ لماذا لم ينطق ويقول إنه يحبني ولن يسمح لي بالارتباط بشخص آخر، حتى لو كان قريبي!

كان حفل الخطوبة صاخبًا بالزينات والأضواء والزغاريد. اعتقدت بهذا أنني نسيت حبيبي، وأنه لن يعود ثانية.. لكنه فجأة دخل

بيتنا.. جاء، فكتمت انتفاضة قلبى فى صدرى. كنت أحادث خطيبى بالهاتف. ربما مرت عشرون دقيقة قبلما أضع السماعة، وأسلم عليه، مجاملة، ليس إلا، كما أوهمت نفسى حينها. ظننت أنه اغتاظ حين قالت له أمى إننى كنت أتحدث مع خطيبى، لكنه أغاظنى أنا وأغاظ أمى وأبى وأختى الكبيرة حين طلب منى ببرود وبصوت رخو مشاهدة شريط حفل الخطوبة.. جلسنا فى الصالة جميعًا. اضطرب جسدى وكدت أمد يدى لوقف مشغل الفيديو حين جاءت اللقطة التى يقبلنى فيها خطيبى، أمامنا، على الشاشة الملونة.

نظرت إليه بطرف عينى، فلم يهتز. حبيبى هذا بلا قلب، ولا إحساس، ولا كرامة. لكنه، فوق ذلك، جعلنى أفتقده.. يمر الشهر ولا يظهر. كنت أعوض غيابه بمكالمات خطيبى الساخنة هنا بجوار هذه النافذة كأننى أتحدث معه هو. فهو لى وحدى.. ملكى منذ البداية.. كيف يجرؤ على هجرى، فلو عاد.. أى عقاب سيجد، بحق دموعى، وسهدى، وحيرتى، واحتراقى. ولم أعد أتحمل غيابه. طلبت من والدى البحث عنه بحجة عدم فهمى لقواعد اللغة العربية.. كنت فى الصف الثالث الثانوى. حين قال أبى إنه عثر عليه وأنه سيأتى لتدريس اللغة العربية لى، ارتديت فستانى الجديد وتركت شعرى منسدلا يغطى ظهرى، وتعطرت حتى ملأ العطر البيت..

جاء متجهمًا. أدركت أننى ملأته جروحًا وأتعبته. مكث يفصل لى أحوال الفاعل، مفردًا أو شبه جملة أو جملة، والفرق بينه وبين النعت.. وحال المفعول.. لكنه لم يكن ينظر إلى وجهى أبدًا.

أحاول أن أجعله يرفع عينيه إلى عينى، لكنه يواصل شرح الدروس بمشاعر مكبوتة وبروح حزينة كأنه مريض. ماذا أفعل لكى ينطق بما فى قلبه وروحه تجاهى. أنا ألمس حبه لى، وأدركه وأفهمه. واستغرب صمته وصبره وطول انتظاره. ماذا ينتظر بعد أن خطبنى أهلى لقريبى. ماذا ينتظر. هكذا أنشغلُ عن دروسه بتملى نبرات صوته وحركة شفتيه وانسدال خصلة من شعر رأسه على جبينه.

وأدعو الله بينى وبين نفسى أن يرن الهاتف، وأن تنادى أمى قائلة إن خطيبى هو المتصل، لعله يتغير. وحين يحدث ذلك أتركه دون استئذان أمام كتاب النحو والصرف، وأرفع صوتى من الصالة بالضحكات الطويلة والتلميحات المثيرة المستفزة ولا أضع سماعة الهاتف، إلا وقد تأكدت من قهر حبيبى الذى ينتظر أمام الكتب يتصبب عرقًا من الغيظ. أعود لأجلس قبالته.. أتظاهر بالانتشاء والفرح، يبدأ أنه يبدأ من جديد، كأن شيئًا لم يكن، فتخمد النار فى عروقى وتنطفئ.. أسهو وأنسى حال الفاعل وأنواعه.

أفكر وهو يشرح ويشرح: هل ظلمته؟ أقول لنفسى: أبدًا.. أبدًا.. أقول لنفسى إنه بلا إحساس، ولا ينبض فى عروقه دم، ولا يحمر وجهه خجلا.. أوقعنى فى حيرة؛ فبدت تصرفاتى غريبة، وهذا أغضب أمى وأبى وأختى الكبيرة.. لاحظ خطيبى عينى الزائغتين ورموشى القلقة وشفتى المزمومتين بلا سبب..

حكيت له عن حبيبى دون أن أقول له إنه حبيبى، وكيف نحتفل أنا وهو فقط برأس السنة وبعيد ميلادى وميلاده.. يطفئ معى

الشموع، بنفخة واحدة، ويقدم لى الورد.. وكيف نتنزه معًا منذ كنت طفلة ومنذ كان طالبًا فى الحدائق العامة المزهرة فى أوقات الربيع.. وحدنا. قصصت له عن تصرفاته، وعن كيف يصحبنى حين ندعوه للإفطار معنا فى شهر رمضان لنعود بالطماطم والخيار والجرجير.. يدخل معى المطبخ. ننهمك معًا فى إعداد طبق الخضروات. شرحت له طريقته فى تفصيل دروس النحو بلا توقف ولا ملل ولا إحباط من عدم فهمى. وبذلك أتهمنى خطيبى بأننى مغرمة به وألقى خاتم الخطوبة فى وجهى قبل موعد الامتحانات بشهرين فقط.. الكلب!

وحالما وجدت حبيبى يمسح بأصابعه المضطربة دموعى، ويفتح أمامى الكتب لأجتاز المرحلة، لكى أنجح. هذا ما قاله. لم أصدق.. تخيلت أننى ربما كنت أعلنت له فى وقت ما شدة حاجتى إليه. كان يقرأ لى فصلا من رواية ريفية يصور فيها الكاتب كيف أنصرف بطل الرواية للغيطان الخضراء وحده، بينما الشمس تغرب، وحبيبته بعيدة عنه. ظل يقرأ. تخرج الكلمات من بين شفتيه بلا حياة.. لا يرفع عينيه الحزينتين عن الصفحة، ولا ينظر إلى. لماذا؟ هل يكرهنى؟ إذن لأى غرض يصبر كل هذه السنين وهو يعلمنى مجانًا؟ كانت يدى تمسك بالقلم، وتحركت غصبًا عنى، وكتبت على الجانب الأبيض من صفحة الكتاب: أحبك.. فرفع رأسه، ومسح وجهى بعينيه، وسأل مرتعش:

- "ما هذا؟"

فاندفع لسانى بالكلام:

- "نعم.. أنا أحبك، وأريد أن أتزوجك، فإذا لم تكن لديك رغبة فاتركنى الآن وانس الموضوع من أساسه".

تعلقتُ بشفتيه. ماذا سيقول والدموع تنساب على خدىَ.. أخذ يدى بين يديه، وهمس بأنفاس دافئة ونبرات حانية:

- "حبيبتى.. لكن أنا، مع ذلك، هذه الأسرة.. أسرتك.. لا أستطيع.. خيانة".

كان يجب أن أطرده فى هذه اللحظة. لا أعرف لماذا توسلت إليه ألا يتركنى، وألا يتخلى عنى أبداً. قلت له:

- "أنت تحتاجنى.. لن تستطيع الحياة بدونى.. أنا واثقة من هذا.. أنا أشعر بنبضك، وأعرف فيم تفكر وماذا ستفعل وماذا تريد.. اقرأ حتى أحلامك.. أعرف.. أحبك وتحبنى!".

نمت ليلتى لأول مرة فى راحة ونعيم على فراش من ريش يحمله النسيم. كنت أريد أن أعيش معه فى الحب فقط.. أربع سنوات من الغرام دون ارتباط رسمى حتى التخرج فى الجامعة. هكذا كنت أفكر مبتسمة خفيفة مُحلقة فى الفضاء. قلت سيظل حبيبى يعلمنى الدروس ونلتقى كل يوم حول نفس المنضدة فى الغرفة المفتوحة على الصالة. ولا أريد أى شىء أكثر من هذا.

لكننى فوجئت به، فى اليوم التالى، يطلب يدى من والدى. هذا المجنون حبيبى. هجم علىّ والدى ووالدتى وأقاربى. أخذت أبكى وأنا أقول أحبه.. أحبه. لم أتخيل أبداً أن يكون بيننا فراق. لم أتخيل

أبداً أننى يمكن أن أتركه يبتعد عنى كما حدث فى السابق. وافقت. نعم.. كنت سعيدة للغاية. أرقص وأدور بين زغاريد أمى وأختى وخالاتى.. وأضواء فلاشات التصوير!

مر على ذلك عام، وأكثر من عام.. طوال الصيف والخريف، ثم الشتاء والربيع، فالصيف الذى يليه، وأصحاب الدكاكين.. الجيران والغرباء، يترقبون خروجنا المسائى اليومى عبر شوارع المدينة الصغيرة. يحسدوننا أثناء تجولنا على أرصفة الطرقات الواسعة المكشوفة. من الكورنيش إلى شرق المدينة المزدان بالشجر الأخضر المزهر. كانت أمى ترى السعادة تلفنى وتطربنى وتجعلنى أكثر مرحاً وذكاء.. هل كانت تحسدنى. هل كانت تخاف من حسد أختى لى.. كانت ترى فى عيون زوارنا الحقد. حين نعود للبيت ليلا تجهز مبخرتها وتدور بها فوق رأسى ورأسه وهى تتلو آيات من الدين ومن كلام الأقدمين.

الآن أنا هنا وحدى والثوانى لا تتوقف تك.. تك.. الساعة نحو الثانية عشرة إلا عشرة دقائق من ليلة رأس السنة. هنا وحدى أنتظره تحت النافذة. أتذكر خيمة الشك والريبة التى نصبتها أختى الكبرى داخل البيت بعدما فشلت فى حياتها، انعزلت فى حجرتها. تقوقعت فى زاوية الحزن، ربما لأنها رأت ما كانت تحلم به؛ رأت كم أنا فرحة سعيدة راضية مع حبيبى، فهو طيب.. يقولون إنه فقير وبائس ولا أمل فى أن ينفق على أسرة فى أى يوم من أيام المستقبل. أنا لا أصدقهم. كل الناس الذين لهم بيوت وأسر وسيارات كانوا فقراء فى الأساس..

لم أكن أتخيل أن لحبيبى قلباً نابضاً بالمشاعر الساحرة، وكلاماً حالماً فاتناً، وذراعين حانيتين، وصدراً دافئاً، وشفتين تخدران جسدى حين يُقبلنى فأتهاوى فى بحر النشوة على درجات السلم.. نفس الدرجات التى هبط عليها ثقيل الخطى مطروداً.. أتشبث بالنافذة التى طالما وقفنا بجوارها، نشبك أصابعنا، نراوح عيوننا ما بين القمر ونجمته البراقة.. ففى الليلة الأخيرة من كل عام تصفو لنا السماء. أتطلع إليها الآن وقلبى يضرب فى صدرى.. دُم.. دُم.. ويقول لى سيأتى الآن.. الآن يأتى.. بيد أن سحابة سوداء أطلت برأسها بغتة من بعيد، تدفعها نسمات البحر الرخوة الباردة ناحية الجنوب..

الشارع طويل خالٍ من المارة. الساحة مظلمة. الدم يحترق فى عروقى. رأسى يدور. جسدى ينتفض؛ أبكى.. أصرخ ليهتز القمر فى كبد السماء:

- "يا حبيبى.."

اندفعت داخل حجرتى. ارتديت فستانى الأخضر الذى يحبه ويسخر من ردنيه المفكوكين أبداً.. نثرت شعرى. رويته بالزيت. وقفت أمام المرآة. لا.. لن أخط شفاهى بالأحمر، ولن ألطخ خدى بالأصباغ.. أعرف حبيبى.. يحبنى هكذا.. إنه الآن يقترب. ربما نزل المحطة محتضناً دُبّى الأبيض وأصابعه حول صحبة ورد يقدمها لى كما كان يفعل حين يعود من العاصمة.. لى وحدى من بين جميع الواقفين. ها هو.. فى أول الشارع فاتحاً ذراعيه ينادى اسمى، فأهبط

مندفعة إليه غصباً عن نظرات أمى المتحفظة وكلمات أختى الكبيرة الحاقدة.. ستلحق بى أختى الصغيرة لتعبث فى جيوبه بحثاً عن الشيكولاتة، بينما أنا فى حضنه الدافئ أغفو..

تطلعت عبر النافذة مرة تلو المرة.. تبينت خلال الظلام الرصيف وسور الساحة. كان شارعنا يبتعد والنافذة ترتفع بعيداً.. بعيداً جداً، كأننى أطل على المدينة من نجمة فى السماء. خمنت أنه إذا كان قادماً فربما لن أراه. هززت رأسى لأفيق، فربما كنت أنساب برخاوة باردة نحو الجنوب، مع السحابة السوداء دونما أدرى.. ربما. لكن ما حدث أن الشارع ازداد حلكة وظلاماً واشتد لمعان القمر ونجمته البراقة. كانت السحابة قد اختفت أو غابت سهواً عن عينى. الآن ظهرت فجأة.. تقترب أكثر فأكثر من نور القمر، بينما حبيبى لا يأتى.. فهل يعود بعد أن صفقت الباب فى وجهه، وطردته هو ودبه الأبيض؛ هديتى..

الساعة تدق الثانية عشرة.. تن.. تن.. تن. اختفى القمر وازدادت الدنيا برداً وظلاماً وصمتاً، بينما النجمة كانت وحدها ترتعش كأنها تختنق.

**مرسى مطروح ١٩٩٦**

# اليوم قبل الأخير

فتحت عينيَّ، بعد سنوات، على الممر المؤدى لمكتب مدير المعتقل، فبدت ملامح وجه نادية، وقامة والدها واقفًا هناك، ومن بينهما جاء صدى لصوت أمي قائلة ما تخاف يا وليدى؛ نحن معك..

في الصباح الباكر، أى قبل ذلك بخمس سنوات، كان من المفترض أن أتوجه مع والدتي إلى مدينة مصراتة.. ولم أكن أتوقع أنني لن أصل إلى هناك أبدًا. وأحيانًا يكون لديك شعور قوى بأشياء معينة.. أشياء غير واضحة المعالم.. بعضها مبهج وبعضها مقبض، مثل الحياة بساق واحدة، أو مثل مدية تحفر الإسمنت حول القضبان الحديدية لنافذة زنزانة..

وحين استيقظتُ فجراً، أى قبل ساعات من الانطلاق بسيارتي على الطريق السريعة تجاه الغرب، راودتني أحاسيس متباينة لم أدرك

كنهها على وجه الدقة، لكن حدثت أشياء غريبة.. فبعد أن اختتمت صلاة الفجر، وجدتُ يدى على مقبض الباب تفتحه، حيث وقفتُ بالخارج هنيهة أحدق فى الفراغ وغبش الأضواء الخافتة..

ومن بين الظلال والخطوط المتعرجة فى الأفق أضاء وجه مدور أبيض على جانبيه خصلات شعر أسود ومنديل تهزه نسمات، وقبل أن أفكر تسللتْ أنفاس جارتنا التى طالما ترقبتُ طلعتها صباح مساء؛ نادية.. كانت تقف هنا أمام باب بيتنا منذ البارحة على ما يبدو.. كأنها لم تأتى من أى مكان وكأنها لن تذهب لأى مطرح.

ـ ".. نادية"؛ هكذا خرج الصوت من فمى أو من قلبى.. ومددتُ ذراعىَّ نحوها، لكننى لم أجد غير ظلال فى ظلال. تلفتُ حولى وكأن هذه الواقعة تحدث معى للمرة الأولى، وكأننى لم أرَ نادية من قبل على هذه الشاكلة.. أطيافٌ تتشكل أمامى فى احمرار الغروب واحمرار الفجر.

فكرتُ أن أطرق باب بيتها، لأعرف إن كانت هى هناك ما زالت بين ملاءات سريرها المزينة بالورود الحمراء نائمة.. تقدمتُ خطوات، فإذا بصوت المذياع يبث أخبار الصباح.. أى أن والدها فى المربوعة مستيقظًا منذ أمس أو أول من أمس.

تسللتُ على أطراف أصابعى تجاه نافذة حجرتها المغطاة بأوراق شجرة أكاسيا كبيرة. سندتُ قدمى اليُسرى على جذع الأكاسيا وأمسكتُ بيدىَّ حافة الشَّبَّاك.. لم أشعر إلا بصوت ارتطام جسدى

على الأرض والطيور تفر من أعلى ونادية مفزوعة تصيح، ووالدها يجرى متعثراً فى أرجاء البيت.

أتذكر هذا المشهد الأخير وأنا قابع بين جدران أربعة لا أعرف إن كنتُ سأموت هنا أم أن يومًا ما سيأتى لأبحث عن نادية؛ فلعلها تعرف أين أمى ومن هدم بيتنا وأين ذهبوا بأثاث المنزل.. أضع أصابعى فى راحة يدها وأتملى وجهها وأسألها وأعاود الأسئلة..

جارٌ لنا محبوس معنا منذ سنوات عديدة، وسينفذ فيه حكم الإعدام مثلى فجر يوم بعد غد، قال، وهو يحفر بمديته حول قضبان نافذة الزنزانة إن آخر عهده بها أنها رحلت مع والدها إلى أخوالها بمرسى مطروح فى مصر. لماذا لا أحد يعرف، وهل كانت ستعود أم لا.. لا أحد يعرف. وهل كانت هناك يوم هدمت البلدوزرات جدران بيتنا.. وماذا فعل أبوها ليمنع الهدد..

باقٍ ساعة أو ساعتان على لحظة تنفيذ خطة الهروب.. أنا غير مطمئن.. هاجس داخلى يقول لى إن رفيقى بالزنزانة ربما كان معتوهًا لا يرى أننى بساق واحدة.. وما رسمه بمديته عن تسللنا ليلاً قد يعجل بموتنا المقرر بعد الليلة التالية، وتنتهى جثة كل منا ملقاة على أحد جانبى سور عين زارة ممزقة بالرصاص.. سنكون ميتين بصفة فاشلين.. لكن لو بقينا مستسلمين لمصيرنا، فمن يعرف.. يد القدر يمكن أن تأتى لى بالعفو.. يقول السجان:

ـ "وين خالد بتاع بنغازى؟".

ـ "أنا..".

ـ "تعال.. أنت جيت هنا بطريق الخطأ.. اعتقلنا المجرم الحقيقي..اطلع..".

عشت على هذا الأمل خمس سنوات أو يزيد.. في كل مرة أحاول إيضاح الحقيقة.. وما من أحد يسمع.. يرد عليَ السجَان بلكمة قوية في وجهي يركلني إلى داخل الزنزانة حتى أصابني اليأس. لا أعرف ماذا تقول أمي عن غيابي وإن كانت وصلت لمصراته، منذ ذلك الحين، أم لا.. لا بد هرعت نادية لبيتنا، مع والدها، لنجدة أمي من صرخات أطلقتْها لحظة عودتها للبيت وهي تعلن للحي القبض عليّ.. على ابنها الوحيد.. حاولتُ الالتفات ورائي لأراها، لكن العربة المصفحة كانت مغلقة من كل جانب.

هكذا كانت الأشياء غير واضحة المعالم.. بعضها مبهج وبعضها مقبض، وكان ما انتابني ذلك الصباح هو الخوف، لكن لم أكن أحسب أنه سيمتد سنوات وينتهي بقتلي على أيدى أناس لا أعرفهم لجرم لم أرتكبه؛ بل لا أعرف عنه إلا كلامًا مبهمًا خلال استجوابي معلقًا في سقف.

ـ "زنديق.. وين شركاك الزنادقة لخرين؛ يا كفرة..".

كان المحقق يقول غاضبًا. وأعرف أنه يقصد المقاتلين السنة المتمركزين جنوبًا في جبل بنغازي.. ما شأني بهم. لكنه لا يريد أن يسأل عن هويتي الحقيقية المسجلة في كلية العلوم السياسية بجامعة قاريونس. فليسأل أساتذتي أو يسأل زملائي هناك..

ـ "أنت زنديق.. عدو للثورة.. كلب ضال.. هاك..".

يصفعنى ثم يلكمنى قبل أن يأمر بتعليقى فى السقف مجدداً.

أريد أن أعرف إن كان آخر وجه رأيته ذلك الصباح، بعد وجه أمى، كان فى الحقيقة وجه نادية.. أم كان محض تخيلات.. حين يستغرق رفيقى بالزنزانة فى النوم أحدق فى الظلام إلى أن يتشكل وجهها أبيض مدوراً على جانبيه خصلات شعر أسود ومناديل تهزه نسمات. كنت فى تلك اللحظة أقف فى الباحة الواسعة أمام بيتنا أطل من هناك على أسطح بيوت بنغازى الراقدة فى ظل البكور قبل أن أبدأ بتجهيز السيارة حيث تريد أمى منذ أسابيع زيارة أختى فى مصراتة.

سقطتُ من على شجرة نادية، وعدتُ على أطراف أصابعى، وفجأة.. مرت ثلاث سيارات من ذات الدفع الرباعى جوار البيت، يبرز من كل منها مواسير كلاشنكوف. وخلفها وجوه ملثمين.. هذا يعنى أنهم من قوات الحرس تفتش عن مشبوهين أو مطلوبين أو ما أدرى..

أغلقتُ الباب، ومن النافذة شاهدتُ أضواء فى بيت نادية.. تبحث عن مصدر الجلبة عند الأكاسيا، ولا بد والدها اعتقد أن نادية فزعت من السيارات الثلاثة التى اختفت عبر الطريق الترابية فى الجهة الأخرى.. وحين لاحتْ الشمس طمأنتُ نفسى ثم فكرتُ أن هذا قد لا يعنى أن الهواجس انطفأت فى صدرى.. مشيت ممسكًا بالمقود والموتور يهدر تحتى مخترقًا شوارع بنغازى.. أمى جوارى تلف طرحتها على رأسها، وتشد الرداء فوق كتفيها.. وفى لحظة شاهدتُ فى المرآة الأمامية مواسير الكلاشن تهتز على جانبى سيارات الحرس. وفى اللحظة التالية حاصرتنى، بل أوقفتنى..

لم أكن أحسب أن الطلقة التى سمعت صوتها تواً اخترقت صفيح الباب ومرت من ركبتى اليسرى. فجأة فتح أحدهم الباب فيما كانت أمى تصرخ وأنا أتهاوى على الأرض بينهم والدم يسيل من داخل سروالى إلى أسفلت الشارع..

فى المستشفى، حيث أرقد بساق واحدة، ولا أعرف كيف وصلت إلى هنا، بدأت التحقيقات.. وكان المحقق يسأل ويجيب وأنا استمع فقط:

ـ "أنت آويت كلاباً ضالة عائدة من أفغانستان. نعم. ولم تبلغ السلطات.. نعم. وحاولت الهرب من العدالة حين اكتشفت أمرك.. نعم. وحين طاردك رجال الشرطة أطلقت عليهم النار.. نعم. وهذا هو السلاح المستخدم فى مقاومة الحرس. نعم.. وهو سلاح مسروق من معسكر الأمن الداخلى. نعم. أنت متهم بسرقة كلاشنكوف ومقاومة السلطات والتستر على زنادقة يناهضون الدولة والمجتمع. نعم.. هل لديك أقوال أخرى؟ نعم.. أريد أن أشكر الحرس لأنه أطلق الرصاص على رجلى لا على صدرى. العفو.. ووقع على محضر التحقيق أمامنا، وأثبت ذلك أمام محامى الدفاع، توقيع المحامى".

سألت صاحبى فى الزنزانة:

ـ "زعماً أيش حال أمى من يومها لهالوقت.. تراهم ضربوها بالرصاص.. تراها ماتت فى الشارع قرب السيارة.. وأيش داروا لأمى إن كانت ماتت وأيش دارولها إن كانت حية، وليش يهدموا بيتنا، ووين خذوا سيارتى. ويا ترى أختى ما زالت ترجى جيتنا لمصراته..".

صاحبى لا يرد.. كان يجاوبنى بكلمات تطييب خاطر فى السنوات الأولى، وفى السنة الرابعة أخذ لا يجيب إلا على الأسئلة التى يرى أنها جديدة، أو جديرة بالرد، مثل السؤال عن نادية وعن وجهها المدور الأبيض وشعرها الأسود المسدل على خديها.. ومنذ أن أخبرنا الحرس بأن حكم الإعدام فينا سينفذ فى وقت ما بعد أسبوع، أى صباح يوم بعد الغد، انشغل صاحبى عنى طوال أيام برسم خطط الهروب.. حتى حين ألفت له قصة عن لقاء تم أخيراً بينى وبين نادية، رفع حاجبيه فى غير اكتراث.. وقال:

ـ "بعد شوى.."

وأشار بإصبعه تجاه النافذة.. أى سنهرب الليلة لا محالة.. وكانت طيور المساء تزقزق من مكان ما عند السور ويعقبها صرخات متهمين يجرى تعذيبهم.. وبين الفينة والأخرى تتناهى ضحكات الحرس، وتكتكة طلقات رصاص..

ـ "أنا لن أهرب.."

قلت لرفيقى فى الزنزانة.. وأوصيته بالتوجه إلى بيتنا، وإلى بيت نادية، وإلى الجامعة فوراً، وأن يستخرج الأوراق المطلوبة لإثبات براءتى قبل موعد تنفيذ الإعدام.. بعد يوم غد، وأن يأتى بأمى وبنادية وبزملائى فى الكلية إلى المعتقل ليتحدثوا مع مديره، وأن يخبروا المحققين بأننى لا علاقة لى بالزنادقة ولا غيرهم من الضالين أعداء الثورة..

مرت اللحظات طويلة كأنها حكم جديد بالسجن قبل أن يلتفت نحوى ويصمنى بالجبن والاستسلام للموت.. قال إنه سيلبى طلبى،

وأمليت عليه العناوين والأسماء التى سيتصل بها، وقلت له إن هروبه منفرداً يعطى الفرصة لكلينا فى أن يظل أحدنا على قيد الحياة، فلو أطلقوا عليه النار والكلاب أثناء هروبه، سيكون هناك أمل فى أن أعيش أنا، ولو لمدة يوم إضافى، وأروى تفاصيل مأساته المشابهة لمأساتى، ولو صرخت بها فى الفضاء وأنا فى ساحة الإعدام.. ولو نجح هو فى الخروج من المعتقل سالمًا، فسيتجدد الأمل فى أن يظل كل منا على قيد الحياة..

ومضت الدقائق سريعًا مرة واحدة، فإذا الوقت يقترب من منتصف الليل، وإذا برفيقى يواصل بمديته حفر حواف النافذة الحديدية، وقبل الفجر كان يمكن أن يشدها بيديه فينزعها، لكن أصوات أقدام وصلصة مفاتيح بدأت تقترب من آخر العنبر قادمة نحو زنزانتنا.. ونادى رجل لم نتبينه فى الظلام على اسمينا قائلاً هيا.. هيا.. تقرر نقلكما إلى معتقل جديد، وستبدأ التحقيقات من أولها. وفى آخر العنبر، حيث الممر المؤدى لمكتب مدير المعتقل، رأيت ملامح وجه نادية وقامة والدها واقفًا هناك ومن بينهما جاء صدى لصوت أمى قائلة ما تخاف يا وليدى.. نحن معك..

**بنغازى ٢٠٠٩**

# جبار القائد

يمكن للصدفة أن تجعل منك بطلا. ويمكن أن تجعل مصيرك الإعدام رميًا بالرصاص أو بحبل مشنقة من رجل مهووس له مشاعر طفل كان يفطر كل صباح والجثث ملقاة أمام خيمة القيادة. هذا ما يمكن تذكره بعد عشر سنوات من الفراق.. وقتها كنا سبعة عمال فى حجرة خالية من الأثاث باردة دوما فى مدينة بنى غازى.. اثنان فلسطينيان ولبناني وسورى والباقى من مصر، اثنان بدينان والثالث نحيف.. وِثْرُ الغرفة من القماش البائد نأكل ونسهر وننام فوقه ونتغطى بما تبقى منه. ظنى أننا بعد أن استمعنا لهذه الحكاية لم ننم بل ظل كل منا يفكر فى لحظة لقاء صاحبنا بابنة عمه التى هجرته وهربت مع زوجها من الصحراء للمدينة البعيدة.

ويقينى أن كلا منا كان يعتقد بخطأ ما أقدمت عليه. فقد كان محدثنا رجلا رقيقًا كالوتر، إذا جاء على ذكرها رن صوته فى حزن يثير الشجن.

الحديث يمضى رخوًا تحت جنح الليل بعد يوم عمل طويل.. كنت مستلقيًا جوارهم. شربنا الشاى. ودخنّا.. خيم الصمت ونحن نستمع لأنفاس بعضنا بعضًا، ومصباح الزيت يشع ضوءًا أصفر يهيج الذكريات.. بدأ صوت العامل المصرى النحيف، وكان اسمه الصابر، يتردد بين جدران الحجرة كأنه قادم من قعر بئر.. هالة الضوء ترتعش تهز وجه محدثنا المرتسم على الحائط ظلا ضخمًا يحكى:

- "أى والله. ضربنا اليهود بلا رحمة فى سيناء.. مدفعى عيار ١٤,٥، أنا والرفاق، أمضينا سبع سنين فى اللباس العسكرى.. هذا أثر رصاصة تلازمنى من سنة ١٩٧٣ حتى اليوم. لا أجد من يسألنى عن سبب الجرح.. ما عاد أحد يعير التفاتًا.."

ترك مصر بسبب الضنك والفقر وجاء إلى ليبيا وشارك فى حرب تشاد.. لم يكن يخطر بباله أنه سيعود يومًا ما لحمل بندقيته مرة أخرى وارتداء بزة الجندى مجددًا وإدارة مقود شاحنة روسية بين يديه على جبهة جديدة فى أفريقيا. فما بالك أن يتهمه جبار، قائد الفرقة على جبهة تشاد، بالخيانة ويحكم عليه بالإعدام.

التفت نحونا. بدا الظل الضخم لرأسه الذى يتحرك على الحائط أكبر من أى حبل مشنقة. فكرت للحظة أنه ربما كان قد حكم عليه

بالإعدام رميًا بالرصاص لأن هذا ما أعرف أنه يحدث مع العسكريين.. مصمص الصابر شفتيه ثم واصل:

- "كعادتي لا بد من أن أبحث عن مخرج في الحال.. لا يصح لك حين تكون في مأزق أن تتروى في التفكير. هذا هلاك لك. لا بد من أن ترسم الخطط على الفور. في الساعات الأولى في الحبس داخل الغرفة الطينية التي شاركت في بنائها في المعسكر شرعت أضبط رأسي على موجته وأرسم الخطط للهروب. حتى الفئران حين تدخل المصيدة لا تستسلم، بل تبحث عن مخرج للهروب. لكن حالما يطحنني اليأس بين ضروسه.. الهروب سهل، لكن المشكلة في ما بعد الهروب.. فبيني وبين أقرب طريق مرصوفة ما لا يقل عن ألف كيلومتر من الوديان والجبال والرمال.. مع ذلك أقول إن الصحراء أرحم من جبار.. أمسك زمام نفسي. لن يفعلها معي. فأنا خلاف الآخرين سائقه السابق، وأنا أيضًا سائق شاحنة إنقاذ الفرقة، رغم فشل العملية.. المهم كان حالي ينقلب مرة أخرى؛ أتصوره أمامي بهيكله الضخم، جامد الوجه.. عسكري الطراز.. شديد الصرامة كضابط نازي في فيلم أجنبي كتلك الأفلام.. ضابط لا يرحم أباه ما دام في ملابس الجيش. وأحيانًا أخرى يسلك سلوك طفل ويتحول لكيس من المشاعر المربكة والمبكية أيضًا.. أضف إلى ذلك أنني لم أكن جنديًا بالمعنى المفهوم؛ كان جبار يسميني جنديًا مرتزقًا ليحط من شأني. والله منذ البداية كان يكرهني لا أعرف لماذا.. كلمة مرتزق هذه تثير في رأسي الجنون.. هل أنا الجندي الذي عبر قناة

السويس وهزم اليهود أنتهى إلى مقام وضيع كجندى مرتزق أمام التشاديين. لعنة الله عليه. ومع ذلك جاءنى جبار هذا فى تلك الليلة.. والله أخذ يبكى بين يدى كطفل، ومن حولنا الجدران الطينية لغرفة السجن".

كانت هذه المرة الأولى التى نستمع فيها لقصص كهذه عن حرب لا نعلم عنها شيئًا دارت رحاها بين ليبيا وتشاد لسنوات.. وراح كل منا يتخيل الصابر فى شكله الجديد. رجل يعيش وهو يخفى جروح ساقه من حرب سيناء وجروح قلبه من نقض ابنة عمه للعهد، ثم أخيراً يحمل روحًا مشوهة بأيام الرعب مع جبار. ها نحن وقد جمعنا الفقر والغربة فى غرفة مشتركة من عشرات الغرف التى يؤجرها مالكها الليبى البخيل للعرب والأفارقة خلف سوق الجمعة. غرف بلا كهرباء ولا ماء يزاحمنا الذباب وابن عرس بين جدرانها الصفراء التى تشبه جدران السجون.

تحت النافذة الوحيدة لغرفتنا كانت أكوام من القمامة ومستنقعات البرك من المجارى العطنة. الخوف يسوقنا أمامه صباح مساء. لم يعد أى من الليبيين، بإيعاز من الحكومة، يرغب فى وجود الأجانب هنا. نحن نتحدث العربية لكن السلطات هنا تقول إننا أصبحنا أجانب لأن دولنا لم تقف مع دولة ليبيا فى الحرب. نتسلل فى الصباح الباكر إلى العمل، ونعود لنلتقى فى الغرفة ونحن نحصى بعضنا بعضًا. لم تكن معنا أموال. كان من يتم إلقاء القبض عليه يختفى فى أقبية السجون بلا رجعة. نعيش فى ضنك وذعر دون أمل.

استمر الحال هكذا عدة أشهر حتى أصبح واقعنا المرير من الأمور العادية. نتفرق في الصباح للعمل في البناء وعتل أكياس الأسمنت والرمل والحجارة. كانت حدود أحلامنا أن نلتقي في الليل لنجتر حكايات بعضنا بعضاً. خلال ذلك كنا قد تعرفنا على الصابر منذ أسبوعين أو ثلاثة. كان خائفاً مثلنا من مضايقات الأمن الليبي. حاله كرب.. لا يتحدث ولا يأكل إلا لقيمات. ينزوي دائماً في جانب دون أن يضحك أو يحزن لما نقوله. إذا مدننا له كوب شاي أخذه وشربه على مهل، وإذا نسيناه لم يذكرنا بنفسه. وبدا لي أن صديقه الوحيد سيجارته التي يمتص منها في وحدته.

لكن في هذه الليلة حين بدأ يروي حكايته تطلع كل منا إليه من وراء ضوء المصباح محاولين تخيل هيئته كجندي محارب فقد إلى الأبد حبيبة قلبه وأصبح محكوماً عليه بالإعدام.. قال إنه كان يأمل أن تشفع له بطولته عند جبار، حين أنقذه صدفة من التشاديين.

فقد كان في ليلة حالكة السواد يقود اللاندروفر العسكرية الخاصة بجبار حين وقعت واقعة ربطته بالقائد برباط الثقة والفخار.. والتشكك والإهانة أحياناً. ينتمي القائد جبار لقبيلة عربية قديمة هاجرت قبل مئات السنين إلى شمال أفريقيا بحثاً عن المراعي، لكنه دائما يقول إن قبيلته جاءت لنشر الإسلام، وأحيانا أخرى لتعليم البربر اللغة العربية. كان مشوشاً إجمالا في ماضيه وفي حاضره وفي نظرته للمستقبل. وهذه الخصلة يشتهر بها أسلافه، وزادتها صحراء ليبيا وضوحاً، وبرزت خلال أيام الضنك على الجبهة التشادية..

قال الصابر إن خصال جبار كانت تحتاج لتهذيب قد يستغرق عشرات السنين، كما إنه يختلف كلية عن خصال المصريين الأطول بالا وثباتًا ويقينًا. وبمرور الأيام حاول الصابر اتقاء شر جبار بالابتعاد عن طريقه، والتقدم مع مجموعة الاستطلاع لمراقبة خيام ومواسير مدافع الجنود التشاديين التى تتموج تحت السراب خلف الجبال السوداء. تظهر عبر المنظار كأكياس صغيرة حولها أعواد تتحرك فى ألق الشمس. لكن جبار الذى كان لا يخرج بعيدًا عن حدود مقر الفرقة بدأ يتحول من السكون إلى النشاط.. ربما بسبب طول الحرب والعزلة المتنامية التى أخذ يشعر بها الجنود. فبعد شهر من المحاولات فشل جنود الإشارة فى إصلاح جهاز الإرسال والاستقبال للتواصل مع القيادة العامة فى طرابلس أو القيادة الوسطى جنوب سرت. وتبعد عن هنا مئات الكيلومترات من الصحراء الموحشة بوديانها الجافة ورمالها المترامية فى تلال صفراء.. تلال وراء تلال وراء تلال إلى ما لا نهاية..

لم يكن جبار يريد الاعتراف بأن فرقته تواجه احتمال أسرها برمتها من جانب العدو. وإن لم يقم التشاديون بذلك، ستواجه مشكلة نقص المؤن. وأمام هذا القلق والحظ البائس بدأ جبار يخرج من خيمته ويطوف فى أرجاء معسكر الفرقة.. بعد أيام طلب من الصابر أن يقود به فى أوقات من الليل والنهار حول مقر الفرقة، وأدرك الصابر، بخبرته فى الحروب، أن جبار الجالس جواره فى قمرة اللاندروفر متحفزًا تحول لقائد يخوض حربًا خاسرة. يمر بالجنود

وقادة المجموعات عصبيًا زاعقًا يلقى الأوامر والجزاءات، فى سهولة ويسر، مثلما يأمر الجندى بقص شعره يقول لزميله إعدام.

كان الصابر يرى ثلاثة أو أربعة جنود ممن صدرت بحقهم أحكام بالإدانة فى الليل يقفون أمام خيمة جبار.. فى الصباح يساقون إليه مجددًا فيأمر بكل هدوء أن يقفوا هناك. يشير وهو ممسك بكوب الشاى، فينطلق الرصاص ويسقط الجنود أرضًا والدماء تسيل من تحت ملابسهم.. نظر إلينا الصابر بعينين لامعتين وقال:

- "كنت أفكر يا أخوة وأقول إنهم عرب مثلى ومثله، من مصر وليبيا ومن فلسطين والجزائر وتونس.. تركوا بلادهم ومدنهم البعيدة، مثلى ومثلكم، وانتهى بهم المطاف فى حرب عبثية كهذه. كل شىء يتحرك بإشارات من جبار.. كل شىء يتحرك بقوة وثبات حينًا وبضعف وتردد حينًا آخر.. حين يقول ارموهم، يتم التنفيذ فورًا.. نردم الجثث فى كثبان الرمال خلف مقر الفرقة. هكذا تخرج الأوامر من فم جبار وهو يشعل سيجارته ويرتشف الشاى صباحًا. فى أيام أخرى يعفو عن بعض الجنود، ويوزع عليهم حصص إضافية من السجائر والخبز رغم نقص المخزون. يقول بصوت لطيف خفيض وهو يكاد يبكى إننا جميعا أسرة واحدة، ثم يضيف فى كلمات مخيفة قائلا إن مصيرنا الموت هنا، ومن لم يمت أمس سيموت غدًا، ويقفل راجعًا لخيمته، وحين كنت أقترب منها أسمع صوت نهنهة ونحيب مكتوم من داخلها".

حسنا. ماذا حدث فى تلك الليلة حين كان يقود اللاندروفر بجبار. نسأل الصابر قبل أن يستطرد بعيدًا عن صلب الحكاية. قال:

- "على أية حال، يا أخوة.. كان انقطاع الاتصالات بين الفرقة ومقر القيادة يزيد من توتر جبار. أشهد والله أن الصدفة يمكن أن تجعل منك بطلا، ويمكن أن تجعل مصيرك الإعدام.. نعم. في أيام النحس يأمر جبار بإعدام جندي أو اثنين أو ثلاثة صباحا، وليلا يأمر بإخراج اللاندروفر لكي أقود به في الدروب المحيطة بمقر الفرقة كأنه يتفقد الموقف على الجبهة. المهم كانت ليلة حالكة السواد كهذه الليلة، ما عدا بصيص واهن من مصباح أزرق بمقدمة اللاندروفر. كنت أشعر بالخوف.. أحدق فأرى خيوط منحنيات وعرة نسلكها كالمعتاد.. أمرني جبار في قلق بالتوقف. كانت رياح الصحراء تنساب حولنا باردة.. اختفى في الظلام".

صمت صاحبنا قليلا كأنه يريد منا أن ندخل في تلك الأجواء، حيث رجلان وسيارة يقفان وسط الرمال على جبهة الحرب في سواد الليل. مصمص الصابر شفتيه وقال:

- "بعد قليل، يا أخوة، سمعت خرير بوله على الأرض في مكان ما. حسنا.. ولمجرد إزجاء الوقت فتحت باب السيارة واستدرت بجسمي وأنا جالس في مكاني.. أنا على هذا الوضع أعبث في السلاح كما يحدث عادة. كنت أفكر لماذا لم تصلنا أي إمدادات، ولماذا انقطعت الاتصالات بين فرقتنا والمعسكرات الخلفية ومقر القيادة المركزية للحرب بالعاصمة! شددت أجزاء البندقية وهززت قاعدتها، لكن فجأة خرجت طلقة لا أعرف كيف، ولا إلى أين مضت.. طلقة رجَّت البندقية وهزت ذراعيَّ وصفرت من أمامي

مخترقة الريح، أعقبها صيحة رجل يسقط.. ظننته قائدى جبار.. إلا أنه، بعد دقائق، جاء من السواد. جلس على مقعده فى السيارة مطمئنًا وقال: واحد مات والآخران هربا.. هؤلاء التشاديون الكلاب يخترقوننا".

ولم يخبر الصابر القائد جبار بأن الرصاصة خرجت من فوهة البندقية رغمًا عنه ودون أن يدرى أن هناك تشاديين كانوا يتربصون بهما فى ظلام الليل قرب السيارة. ضحك البعض من هذه الصدفة الغريبة، بينما التزم آخرون الصمت رغم اهتزاز ظلالهم على الجدران بفعل حركة نار المصباح. أشعل أحد الفلسطينيين سيجارة، فيما تطوع الآخر بصنع أكواب من الشاى.. بعد برهة لف الجميع رداء من السكوت. بدا أن كل واحد منا يتعجب بينه وبين نفسه من غرابة أحداث الدنيا، قبل أن نعرف الطريقة التى نجا بها الصابر من قرار جبار بإعدامه..

كنا نخشى أن ينهى قصته عند هذا الحد. نتطلع إليه وحال كل منا يقول بأنه لا بد من أن يواصل.. الصابر هو العامل الوحيد بيننا الذى يحظى باحترامنا لأسباب لم نكن نعلمها.. ربما بسبب حبه وعشقه لابنة عمه التى ارتضت الزواج من رجل آخر والرحيل معه بينما كان هو يحارب من أجل الوطن ظنا منه أنها تنتظر انتصاراته. يتملكنا شعور، منذ عرفناه لأول مرة، بأنه أكثر منا خبرة وجرأة، رغم عزلته عنا.. رجل حمل السلاح وواجه الموت.. جرب الفشل والفراق والغربة.. عركته الحياة وتعارك معها.

دارت دورة الشاى. بدأنا نرشف من الفناجين. أتطلع إليه وأنظر إلى الفلسطينيين واللبنانى والسورى. أقول إن هؤلاء الأربعة لا بد من أنهم جربوا الحروب والفراق والشتات والخيبة، فإن كانوا متحمسين لرواية الصابر فهذا لأن معاناته أكبر من معاناتهم فى الأراضى المحتلة من الإسرائيليين ومن الحكومات الظالمة. أسوأ شىء أن تكون فى قلب حرب يموت فيها الجنود ببنادق زملائهم وبأوامر قائدهم. كان كل من فى الحجرة يحدق فيه بعيون حزينة يملؤها الاستغراب والدهشة، ويرفعون كؤوس الشاى فيرشفون منها فى حركة آلية كأنهم مخدرون.. سرت قرقعة سيارة عبر النافذة ونبح كلب، ثم هدأ الليل مجدداً.

قال الصابر فى صوت خفيض إنه منذ تلك الليلة التى قتل فيها أحد التشاديين دون أن يقصد، والضابط جبار يقربه منه ويعامله معاملة خاصة، بينما يزداد خوفًا منه:

- "أنا أعرف يا أخوة، وأرجو ألا تنسوا هذا.. أعرف أن أسوأ شىء يمكن أن يصادف الرجل من أمثالنا ويقهره، هو القرب من القادة.. إنهم فى الحقيقة شر.. الابتعاد عنه غنيمة. لأن القائد ما دمت قد أصبحت تحت ناظريه فيمكن أن يستهدفك. يظل يشكو لك متاعبه وحين يشعر أنك امتلأت بأسراره يتخلص منك ليشعر بالراحة قبل أن يبحث عن شخص آخر، وهكذا.. المهم أننى فى تلك الليلة حظيت منه بمعاملة مميزة. شعرت بهذا وتفاخرت به. يقدمنى للضباط الخمسة، وهم كل من تبقى على قيد الحياة مع الفرقة،

بنفس الكلمات في كل مرة.. يقول لهم: هذا واحد من القبائل العربية مثلنا لكنه من مصر يرى التشاديين السود في الظلام.. يقولها ولا يضحك، بينما هم يضحكون.. أصبح الجميع ينظر لي باعتباري بطل المعسكر المقرب من جبار الرهيب.. لكن خطوط الاتصال بمركز عمليات الجيش الليبي ظلت مقطوعة والذخيرة والسجائر والخبز كان ينفذ منا. كل يوم نكتشف أن مجموعة من الجنود قد هربت، أو أُسرت. تمكن التشاديون من الالتفاف من حولنا عدة مرات. ثم جاء وقت عصيب أصبح من الممكن أن تبصر بين حين وآخر أحد الجنود التشاديين وقد تمكن من اجتياز حدود مخيم فرقتنا، وتفجير سيارة من سياراتنا. وفي أيام العواصف الترابية يمرق أحدهم من خلف خيمة القائد، وقبل أن تصل يدى الحرس إلى الزناد، يختفي.. أي والله كانوا كالأشباح. كانت معنا أسلحة ومعدات روسية فاتها الزمن من سنين، وكانت مع التشاديين أسلحة ومعدات فرنسية حديثة.. مواجهة غير متكافئة تدور على المكشوف أمام عيني. قلت إنني هالك مع القائد جبار لا محالة. كنت أرى الموت يدور حولي".

روى لنا الصابر أن الطعام نضب، ولم يعد في مخيم فرقة جبار سوى بقايا أرز مسلوق في الماء بدون ملح ولا زيت. يأكلون منه وجبة كل يوم أو يومين، حيث تزداد وجوههم اصفراراً. أعين الجنود تكاد تختفي في محاجرها من الجوع والعطش والخوف. هنا أبرز القائد ورقته الأخيرة وراهن على أهم جنوده؛ الصابر، للحصول

على مدد.. طلبه فى خيمته.. أعلمه بالمهمة، وأمره بكل جدية وصرامة أن يخترق الحصار التشادى ويصل لأقرب مركز إمداد ليبى، وأن يعود حيًّا أو ميتًا بالمدد والمؤن..

حكى الصابر أن جبار كان يرى الخوف فى عينيه، وأن القائد وهو يضع فيه ثقته، لم يمنع نفسه من مكاشفته بأنه يعلم أن بوسعه أن ينطلق شرقًا نحو وطنه مصر، ويخلف وراءه المعمعة على رأس أهلها، فمعه سلاح وشاحنة وخزان وقود إضافى والحرية المطلقة.. فأى شىء سيعيده إلى هنا مرة أخرى إلا إذا كان مجنونًا.. غير أن جبار قال له إنه ينبغى أن يقسم له على القرآن بأنه سيعود لأن المعسكر على شفا الهلاك، وأنه منقذه الوحيد. ولاذ الصابر بالصمت، وأخذ يحدق فى وجوهنا تحت جنح الليل وجهًا وجهًا، كأنه يريد أن يتأكد من أننا ما زلنا متشوقين لباقى ما حدث له مع جبار.

قال الصابر إن القائد الذى لم يكن واثقًا من إخلاصه، أخذ يذكره بما كان يردده الرئيس جمال عبد الناصر عن القومية العربية، وأن العرب جميعهم عليهم أن يدافعوا عن بعضهم بعضًا ضد التدخل الأجنبى حتى لو كان من دولة أفريقية كتشاد. يقول له إن السود يريدون تحرير الساحل الأفريقى الشمالى من العرب، وأنه يعلم أن الصابر من الرافضين لصلح السادات مع الإسرائيليين ومن المعارضين لتقارب مبارك مع الصهاينة، ومن المؤمنين بالقومية العربية التى يرعاها القذافى انطلاقًا من ليبيا، بعد موت عبد الناصر.

حدثنا الصابر عن لغة جبار المتكبرة فى ذلك اليوم وألفاظه المتحجرة التى كان يعدد فيها مزاياه كمجند سابق فى الجيش المصرى خير أجناد الأرض، وأن ليبيا تحتاج إلى أمثال الصابر الذى خبر الحرب مع إسرائيل وشارك فى اجتياز المانع الرملى الضخم لتحرير سيناء من الاحتلال.. ثم ضرب على كتفه ووعده بإجازة طويلة، قبل أن يمد له يده الثقيلة، ويهز جسده كله هزات مرعبة وهو يودعه. طلب منا الصابر أن نتخيل كيف أنه، بعد كل هذه الطمأنينة والثقة، عاد إلى المعسكر، بلا أى مؤن، بل بأخبار هدت كبرياء جبار، ثم حولته إلى وحش يريد سفك دمه، ثم أبكته كطفل داخل جدران الغرفة الطينية المقامة فى جانب مقر الفرقة. كيف حدث ذلك؟ قال الصابر حين توهج وجهه وهو يشعل سيجارة جديدة من نار المصباح:

- "المهم.. قبل أن يشيعنى جبار والجنود لكى آتى لهم بالمؤن، بدأت أستعد منذ الفجر للاتجاه شمالا. أقول إننى غالبًا سأموت فى الطريق، وإن نجوت وعبرت الطوق التشادى فلن أعود إلى هذا المعسكر وقائده النحس مرة أخرى، وسأعبر الحدود المصرية إلى وطنى.. إلى مرسى مطروح، إلى أمى.. المهم.. كشفت على محرك الشاحنة الروسية من نوع ماجيروس الشديدة.. ملأت خزان الوقود.. فحصت الزيت والإطارات والسيور وهذه الأشياء.. حتى الأبواب. نهايته أدرت محركها، بينما كنت ألمح جبار يدك يديه فى جيبى بدلته الكاكى أمام خيمته، وحوله عدد من الضباط والجنود

وقد تهللت وجوههم بخبر رحلتي لباقي فرق الجيش التي انقطعت عنا أخبارها منذ أشهر. يهز القائد بينهم جسده البدين من الفرح والتوتر.. ألقيت سلاحي مع خمس خزن ذخيرة بجواري وضغطت الدواسة، وتراجع خلفي المخيم بمن فيه، وحالما شرعت أغني وحدي في الصحراء، وهدير المحرك القوي يجاوبني طرباً".

مع بزوغ أشعة النهار امتدت أمام الصابر الآفاق الرحبة بعد أن تجاوز الأماكن التي كان يمكن أن تمثل خطراً لاحتمال وجود تشاديين فيها. السماء صافية والشمس تطل لطيفة. وبين حين وآخر يرى طائراً مرفرفاً وحده.. الريح تئن من أجناب الشاحنة وهو متجه إلى الشمال.. وللحظة تداخلت في رأسه الأزمنة. سأل بصوت حالم كأنه يرجونا جواباً في غرفتنا نصف المظلمة تلك، وقال:

- "تلفت حوالي.. يااااه.. هذا حلم.. انظر للفراغ الذهبي المشع بفعل شمس البكور وأقول هل أنا في سنة ثلاثة وسبعين في طريقي عبر صحراء السويس إلى الجبهة لمحاربة الصهاينة في سيناء.. وأنظر في الأفق لأرى أمامي القناة ومن ورائها الكثبان الرملية التي يتمترس خلفها الإسرائيليون. أقول إنني أعرف.. أقول إنني سأجدُ رفاقي الصعايدة ينصبون الصواريخ.. فالصحراء هي الصحراء، غير أن الجو عبّق فجأة برائحة التراب والحصى. تصببتُ عرقًا تحت الحر. ارتفعت شمس الظهيرة وطنَّ الفراغ في رأسي.. كما لو أني اكتشفت فجأة، وأنا ممسك بمقود الشاحنة، أنني في سجن ذي جدران مرتفعة حتى السماء.. كرهت ملابس الجندية، فكأني ولدت

بها يا أخوة. بعد قليل زفر محرك الماجروس من تحتى واهتز بوز الشاحنة في غضب كأن اللعينة عادت لتدافع عن عسكريتها..".

ضحك الصابر ضحكة قصيرة، وأطفأ نار سيجارته في قعر فنجان الشاى، ثم رمى عقبها عبر النافذة المظلمة حيث أكوام قمامة السوق برائحتها الكريهة. غمغم بأغنية بدوية قديمة بنبرة شجية لم نفهم منها شيئًا، وأشار لنا أنه كان يغنيها عبر الطريق الرملية الخاوية لطرد الملل، ومحاولة الوصول إلى قرار محدد لمصيره.. وواصل قائلا:

- "أشهد والله يا أخوة، أدارت الأغنية رأسى، وأنا أتخيل وجه ابنة عمى. نعم.. هيجت الأغنية الذكريات في قلبى.. كنت وحدى.. كنت متوحدًا مع نفسى ومع الشاحنة ومع الأرض والسماء والريح.. قلت مالى أنا ومال الحرب الدائرة بين الليبيين والتشاديين.. من هنا تكون مسيرة نهار أو نهار وليلة للحدود المصرية، وهناك سأترك الشاحنة والسلاح والملابس العسكرية الليبية، ومضى عاريًا وأعبر السلك الشائك وحقول الألغام إلى مرسى مطروح مشيًا كما جئت.. لكننى خفت، بل ارتعبت حين بدأت نفسى تراودنى للعودة إلى أهلى. أعلم أنه، كما يحدث عادة، ستفتح التحقيقات المصرية من كل جانب: ماذا كنت تفعل عند القذافى المجنون الذى يشتم مصر؟ ومنذ متى وأنت هناك؟ و.. كيف عبرت الحدود إلى هناك؟ ومن يرأس مكتب ص.ش الذى أنشأه القذافى لتجنيد المصريين بغرض تنفيذ عمليات إرهابية ضد النظام المصرى المحب للسلام؟ وأى الأماكن عملت بها فى ليبيا؟".

قال الصابر إنه لم يتمكن من حسم أمره، فترك الماجروس بإطاراتها الضخمة تجرى به على غير هدى وهى تلهث فى المدقات الترابية متجهة به مرة للشمال الشرقى ومرة للشمال الغربى.. كان ينتظر الوصول إلى قرار نهائى.. إما البقاء فى ليبيا، وعليه لا بد من إنجاز مهمة القائد جبار، وإما التوجه رأساً إلى مصر.. وعدل من جلسته وأحكم لف العمامة على رأسه، دون أن يتوقف عن الكلام:

- "وفكرت، أى والله يا أخوة.. إذا توجهت لمصر سيلاحقوننى فى كل مكان وسيقبضون علىّ فى نهاية المطاف. فى بداية الاستجواب سيصفعوننى على قفاى -كما يحدث عادة- ثم يلكمون وجهى حتى يسيل الدم من أنفى وفمى.. إذا لم أعترف بالطريقة التى ترضى المحققين يشرعون فى نفخى فى غرفة ضيقة بلا نوافذ ولا أبواب.. وبعد ذلك يملون علىّ كل شيء: أنت اسمك الصابر.. تسللت إلى ليبيا عبر الحدود بدون جواز سفر يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. عملت بيَّاعًا فى تشاركية الفاتح للبقالة بشارع الثورة فى مدينة بنى غازى.. كنت تسهر مع جمعة مدير التشاركية بعد دوام العمل.. وتفاصيل صغيرة أخرى تدير الرأس.. مثلا.. أنت اسمك الصابر، وأمك اسمها كذا، وتعيش فى نجع كذا، وكان عندها معزات باعتها.. وأن ابنة عمك أحبت رجلا آخر وهجرت النجع.. وأن قفل باب تشاركية الفاتح لونه أصفر ومصنوع فى الاتحاد السوفييتى.. وأن جمعة لم يعطنى أجرتى طيلة سنة كاملة فتعاركت معه، وجرحته فى خده الأيمن بقبضتى، وبعدها ألقت

اللجان الثورية القبض عليّ، وساقتني لمقاتلة التشاديين، وبعد ذلك يقول لي المحققون: أنت متهم بالانخراط في صفوف جيش دولة أجنبية.. وقع باسمك تحت أقوالك هنا".

شرح لنا الصابر موقفه، بينما ننتظر دوراً آخر من أكواب الشاى في غرفتنا تلك. روى كيف اختلطت عليه مشاعره.. كيف بدأ يجنح بالماجروس نحو الشمال الشرقي باتجاه الحدود المصرية هرباً من جبار وفرقته المحاصرة، وكيف يعود فيجنح بها نحو الشمال الغربي حيث معسكر المؤمن الليبي.. ومال إلى الأمام كأنه يجمع شتات ذكرياته المريرة قائلا إن خياله كان يأخذه بعيداً، وقلبه كان يقول له إن مصيره في مصر سينتهي إلى غرفة الحبس الانفرادي الباردة، وبينما سيتحطم بين جدرانها الضيقة، ستستمر والدته وأهل النجع في الظن بأنه ما زال يعمل في تشاركية الفاتح ببني غازي.. واصل نافثًا الدخان بحرقة أعلى نار المصباح:

- "نعم.. قلت لنفسي إن أهلي وأصحابي سينتظرون عودتي من ليبيا بينما أنا محبوس في الظلام في سجن ما بمصر في الحضرة أو طرة أو الواحات.. أفكر وأدعس دواسة البنزين، فتهدر الشاحنة ضاغطة الأرض الجرداء بعجلاتها الكبيرة مندفعة إلى الأمام على غير هدى، ولا أهتم، فأنا رأيت نفسي وقتها، بينما أتطلع حولي للصحراء، إنني إنسان لا جدوى منه. ولدتني أمي في صحراء كهذه، وسأموت في صحراء مثلها لا يفصل بينهما سوى سلك الحدود الشائك.. أي والله يا أخوة".

منذ البداية، حين عرفنا أن للصابر حبيبة اعتقدنا أنه سوف يحكي لنا عنها وعن شوقه للعودة إليها في بلدته، أو نجعه أو ما أدرى.. لكن هذا الأمر بدا لي أنه كان محزنا بالنسبة إليه إلى درجة أنه لم يكن يتوقف عنده كثيراً. كان يريد استعراض حياته أمامنا بقدر معين، وهذا ما اعتقدته أنا على الأقل في تلك الليلة. توقف الصابر عن الكلام ثم مضى يقول:

- "حتى بعد عودتي من مركز المؤن والشاحنة خاوية.. وبعد إعلان جبار قرار إعدامي، جلست وأنا أنتظر مقابلة الموت. قلت ها أنا ذا مشيت في صحراء الحياة عطشان، حتى تخدرت قدماي وكلّت ذراعاي وارتخى عنقي. أي والله يا أخوة، قلت ها هو وزني قد ثقل مني، ولا يمكن أن أقدر على حمل جسدي أكثر.. هذا التفكير أعرفه. هذا ما كان قد حدث لي أيضاً بعد وقف الحرب في سيناء وتسريحي من الجيش.. رجعت لأهلي فاحتضنتني أمي وتجمع حولنا أهل النجع. لكن وجهها كان غريباً فيه كثير من التجاعيد التي لم تكن فيها من قبل، وفي شعرها لون أبيض من الشيب.. خيام النجع بدت أصغر من السابق دون أن يطرأ عليها أي تجديد كما كانت العادة قديما كل سنة. أي والله.. سارع رجال النجع بتنبيهي إلى أن ابنة عمي التي كنت قد خطبتها قبل التحاقي بالحرب في سيناء قد تزوجت من سنين، وبادروا بقول ذلك لأنهم، والله، رأوا لهفتي عليها وبحثي عنها بين وجوه البنات.. جلستُ أمي أمام الخيمة على الأرض، ونمتُ على رجليها بطولي هذا فأخذتْ تمسح على جبيني

وتقول لى ها أنت معنا فلا تفارقنا بعد اليوم أبدًا، وما ضاع ضاع.. أى والله يا أخوة كنت أغالب البكاء. قال لى أهل النجع إن المطر لم يمطر منذ سبع سنوات. هذه بشرى نحس. بكيت فى داخل نفسى على ابنة عمى التى تزوجت من قريب لنا فى النجع هاجر بها إلى طرابلس، وبكيت لغياب المطر كل هذه السنين. ورأيت الدنيا ضيقة بعد أن كنت أحسبها واسعة".

رغم إصابته فى ساقه وقسوة الظروف التى وجدها أمامه بعد حرب سيناء، استأنف الصابر عقب عودته للحياة المدنية بالنجع حرفة أبيه. أخذ صوته يخبو ويبتعد وهو يبين لنا كيف كان يشقق الأرض خطوطًا طويلة بالمحراث مئات المرات مفكرًا فى ابنة عمه. يغرز سكينة المحراث فى الأرض كأنها تنغرز فى قلبه المفجوع، فيسوط الحمار ذهابًا إيابًا وهو يرى بيوت الشعر والخيش الساكنة على بعد النظر. كان أهل النجع يحرثون أيضًا يمينًا ويسارًا وهم يتشككون فى جدوى ما يقومون به بسبب علامات جديدة بشح مستمر فى المطر هذه السنة أيضا. السماء صافية بلا سحب، والشمس قوية تضرب بنورها التراب والحصى ورؤوس النباتات البرية الداكنة الجافة.. يحرث ويغنى مأساته وتبدد أحلامه بينما أمه تغرف من حبات الشعير من حجر ثوبها وهى تمشى أمامه وتبذر الأرض الجافة باتساع ذراعها، تدعو الله بصوت قوى أن يعطيها، من كل حبة، سنابل وفيرة: يا عطّاى اعطنا منه.

ذكر لنا الصابر في مرارة أنه كان يقول لنفسه وهو يتطلع للسماء الخالية من المزن إنها إن لم تستجب له، فعلى الأقل سوف تستجيب لدعاء أمه ولو بقليل من المطر قبل موت البذور التي بذروا منها مقدار إردبين على الأرض. لكن هذا للأسف لم يحدث. راح كل شيء هباء. كل ما حدث أنه في مطلع الربيع شققت وريقات خضراء ضئيلة الأرض الجافة، وما لبثت أن توقفت عن النمو وتحول لونها للأصفر قبل أن يموت ما فيها من حياة.. باعت أمه آخر عنزاتها، ورحل هو إلى مدينة مرسى مطروح بحثًا عن عمل. قال:

- "عملت عتالا، وحفارًا، وخادمًا.. أي والله يا أخوة. عملت في كل الأعمال التي تمر من أمامي، لكن الأجر لم يكن يكفي إلا معيشة يوم بيوم.. ولا شيء أساعد به أمي.. كان كثيرون مثلي ممن عادوا من محاربة إسرائيل يتسكعون في المدينة ثم بدأوا يتجهون غربًا إلى ليبيا رغم الخلافات بين السادات والقذافي بسبب صلح مصر مع إسرائيل.. عبرت الحدود مثلهم.. لكن العمل في بني غازي لم يكن أفضل مما لقيت في مرسى مطروح. كان يوجد الآلاف القادمين من الدول العربية والأفريقية ينتظرون تحت الكباري وفي زوايا الشوارع بحثًا عن عمل.. عملت عتالا هنا أيضًا في بني غازي لكن في الميناء.. كانت النوارس تحوم حول البواخر، وهواء البحر يرطب شفتي بندى مالح، ورذاذه يطرطش على سروالي وثوبي.. اعتدت أن أدخن مساء كل يوم وأقول ها هو قرص الشمس الأحمر يمر الآن من فوق بيت ابنة عمي في طرابلس.. هل أذهب للبحث

عنها. هل لديها أطفال. هل أتسبب في هدم حياتها. ويغلبني البكاء. لكنني كنت أتماسك، وأشغل عيني وعقلي بأي شيء آخر وأنا جالس فوق رصيف الميناء فأحصي السفن الضخمة، وأسمع رطانة الأجانب، وأفكر كيف أن هذه الدنيا تعج بالخلق من كل ملة.. كم أنا ضئيل وصغير في هذا العالم. في الليل يصحبني عمال الميناء فنسهر ونغني.. ادخرت خمسين ديناراً شيعتها لأمي مع المهربين الذين يعبرون الحدود. ولسوء حظي قبض حرس الحدود عليهم بسبب كثرة الشتائم بين السادات والقذافي حينها. فقلت ها هو عَرَقي وتعبي قد شربه وأكله تراب الصحراء دون طائل، كما فعل معي من قبل.. فكرهت حتى البحر وضاقت نفسي. تركت العمل في الميناء، والرزق على الله، أي والله..".

حكى لنا الصابر كيف وهو يتسكع مساء تعرّف على جمعة صاحب التشاركية. كان الرجل يحاول إغلاق باب دكانه بقفل قديم يرجع لأيام الاحتلال الإيطالي لليبيا.. قفل أسود صلب عليه سائل لزج من الصدأ والزيت. لكن القفل لم يعد منه نفع. ولم يكن في مقدور جمعة ترك التشاريكة مفتوحة للسراق والذهاب لشراء قفل جديد.. فاستوقف الصابر، وطلب منه أن يحرس المحل حتى يعود، بعد أن أخذ منه بطاقة هويته لكي يبقى ولا يهرب.

وحين عاد جمعة حاملا قفلا روسيًّا أصفر وجد الصابر قد باع الكثير من السلع بكثير من الفلوس خلال أقل من ساعة.. فاستبشر به خيراً، وقرر الاحتفاء به، فاصطحبه لبيته وتعشى هناك وبات

الليل معه وأصبح فى اليوم التالى يعمل معه فى تشاركية الفاتح للبقالة تلك. من يومها زادت ميزانية التشاركية بسبب كثرة البيع والشراء حتى إن شارع الثورة كله كان يعرف بأمر تغير حالها إلى الأفضل. ويقول له جمعة: يا وجه الخير عد.. كم حساب اليوم!

لكنهما اختلفا فى نهاية المطاف، لأن جمعة كان يعتقد أن الصابر إذا حصل على أجرته سيتركه ويرجع لوطنه، وبالتالى تبور تشاركيته. وتطور الأمر للعراك. هذا من الأخطاء التى يمكن أن يرتكبها أى مغترب فى أى بلد. قال الصابر إنه عرف على الفور أن الحظ النحس عاد.. فترك العمل بعد سنة لتعود سيرة التسكع من جديد فى شوارع بنى غازى، بينما كان جمعة قد أبلغ عنه اللجان الثورية التى ساومته بين السجن ومقاتلة التشاديين مع الجيش الليبى جنوبا. وأضاف الصابر:

- "حالما رسم لى الله حالى الآتى.. حال لا يسر أحداً يا أخوة، أى والله.. صوّر لى مصيرى وأنا أندفع للحرب على الجبهة مع الليبيين.. حين التحقت بالفرقة الأمامية تحت إمرة جبار نسيت ما ورائى وما أمامى. اثنان فقط لم أنسهما. عند الغروب أجلس فوق التبة أرقب الشمس الحمراء وهى تميل فوق طرابلس وأقول إن ابنة عمى لا بد من أنها هناك الآن، فهل تذكرنى، وبأى شكل تذكرنى. هل تعرف أننى على الجبهة هنا فى الجنوب. هل معها أطفال وكيف يعاملها زوجها.. هل بلطف.. هل يلاطفها. أم أنه يعاملها بقسوة. بعد أن تغيب الشمس يظهر وجه أمى أمام عينى.. تعيد حرث

الأرض لعل المطر يجيء هذه السنة. قبل أن أنام أطمئن نفسى أن لا أحد من العجائز يجوع فى النجع. أى والله، هكذا هو الحال عندنا، يا أخوة..".

رغم شدة جبار وجبروته، فإن الصابر كان يشعر لسبب ما أنه شديد الخوف فى داخله؛ ربما بسبب طول أمد الحرب وزيادة عزلة فرقته عن باقى الفرق، حتى أصبحت مهمة جبار فى الأيام الأخيرة الحفاظ على بقاء جنوده وحماية موقعه من تسلل الجنود التشاديين. أصبح يفكر أمام الصابر بصوت مسموع. قال الصابر إن جبار كان يتحدث معه أكثر من مرة عن تجارب المصريين فى محاربة الإسرائيليين والتصدى لمحاولة حصارهم للفرق المصرية على قناة السويس، وقال الصابر إنه كان يجارى جبار من شدة خوفه منه، ويؤلف له كل يوم وقائع لم تحدث عن خطط القادة المصريين ضد الإسرائيليين فى الكر والفر. وعلى ذلك يضع جبار كل يوم خطة لصد هجمات التشاديين ثم يغيرها فى اليوم التالى، حيث يكون عدد من جنوده قد اختفوا.. إما وقعوا فى الأسر أو فروا من الجبهة أو قام هو نفسه بإعدامهم أمام زملائهم.

روى الصابر المشهد المخيف للقائد جبار حين يصحو من نومه الذى لا يزيد عن ساعتين أو ثلاث.. يصحو غاضبًا كما نام، منفوش الشعر حاملا سلاحه الكلاشنكوف فى يده، يهز جسده الكبير فيثير تحت حذائه العسكرى التراب، وحول خصره مسدسات وحزام طلقات رصاص.. يربت بيده على كل دبابة أو مدفع مصوب

نحو مواقع التشاديين. ولا يعرف الجنود وأطقم الضباط الذين يؤدون له التحية بصرامة عسكرية، إن كان متعكر المزاج أم صافى الذهن، لأنه فى بعض الأيام كان يفطر على تنفيذ أوامر بإعدام جنود حاولوا الفرار من الحرب أو أثبتت تخيلاته وتحقيقاته السريعة أنهم جواسيس للعدو.

كانت الفرقة تسير نحو الفناء بأكملها. قال الصابر إن واقعة قتله لأحد الجنود التشاديين فى الليل، وشعور جبار بأنه أنقذ حياته جعله يثق فيه أكثر من السابق، ويطلب منه إنقاذ الفرقة واختراق حصار العدو، والوصول إلى أقرب معسكر جيش فى الشمال لجلب المدد؛ آليات عسكرية وأسلحة وجنود ووقود وأجهزة اتصال وطعام.. وأى مدد آخر.. أى مدد.

وحكى لنا الصابر أنه حين وصل إلى المعسكر الرئيسى جنوب سرت، والذى ينبغى أن يحصل منه على المدد والمؤن، صعق. مجرد أسلاك شائكة قديمة لها بوابات مفتوحة من كل جانب وفى الوسط أسوار حجرية ومسجد وعدد قليل من الجنود، أما قائد المعسكر فقيل له أن يتفقد أغنامه التى ترعى فى الوديان، وأنه لن يعود قبل يومين لأن هذا الموسم هو موسم ولادة الحملان فى الجبل الأخضر.

ولم يسأل أحد الصابر من أين هو قادم أو ماذا يريد! وتحدث مع جندى عصبى المزاج قدم نفسه على أنه نائب قائد المعسكر، وبدا أن الجندى لا يعرف شيئًا عن تطورات الحرب على الجبهة التشادية. كما أن المعسكر يفتقر إلى وسائل الاتصال ولا توجد به معدات

عسكرية ذات شأن أصلا. ويبعد عن مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في طرابلس بمئات الكيلومترات. صمت الصابر قليلا، ثم استأنف حديثه:

- "إذا كان المعسكر الرئيسي المنوط به توفير الإمدادات لجبهة الحرب الأمامية أصبح على هذه الشاكلة، فهذا يعني أن مقر القيادة العامة أسوأ. هكذا فكرت.. ثم فكرت مرة أخرى في أن الدولة ربما أوقفت الحرب ونسيت أن تبلغ جبار بالأمر. مكثت الليل بطوله أحاول مع الجندي العصبي الاتصال بمقر القيادة العامة دون جدوى. في فجر اليوم التالي تصرفت وحدي. ملأت الشاحنة بكل ما وجدته من أسلحة وذخيرة وطعام ووقود، دون أن يسألني أحد عما أفعل.. انطلقت عائدا إلى الجنوب لأنقذ زملائي الجنود المحاصرين الجوعى، وأخبر جبار بالتطورات. قلت بيني وبين نفسي إن القائد حين يعلم بهذا سيأمر بالانسحاب من هذه الجبهة المنسية فوراً.. المهم بدأت أدفع بالشاحنة الثقيلة إلى هناك. صناديق الذخيرة مصفوفة تحت، وفوقها أجولة خبز جاف وبسكويت وكراتين سجائر. في الحقيقة كنت أقل توتراً لأنني قلت إن ساعة الفراق بيني وبين جبار والجبهة قاربت على الانتهاء.. إلا أنني لم أكن أغني.. كنت مع ذلك أستريب في أن شيئا يطاردني ولا أراه".

وأبعد الصابر النوم الذي كان يدور فوق رؤوسنا حين ذكر فجأة أن الذي كان يطارده في طريق عودته إلى فرقة جبار هو الجيش التشادي نفسه. قال:

- ".. وفجأة انطلقت رصاصات شقت صفيح الباب الجانبى للماجروس، وإذا بثلاث سيارات تويوتا بيك آب، لونها كلون التراب، فوقها مدافع رشاشة، تحاذيني تماماً، كانوا يريدون منى التوقف بالحسنى.. يا أيها التشاديون كيف قذفت بكم الأرض نحوى. كيف توغلتم إلى هذا الحد. ما دمتم تمكنتم من خطوطنا الخلفية فهذا يعنى أنكم سيطرتم على فرقة جبار وأسرتم كل من فيها.. قلت لنفسى هذه ساعة النهاية. لن أستسلم للتشاديين بإرادتى، إذا أرادونى عليهم أن يقتلونى أولا.. أى والله.. أدرت مقود الشاحنة مرة واحدة فى اتجاه الكثبان الرملية، وضغطت دواسة البنزين فهدرت الماجروس بمحركها الروسى القاسى، كأنها مصممة مثلى على الفكاك من كمين العدو. أنّت بحمولتها الكبيرة وإطاراتها الثقيلة، ومالت على جانب حتى قلت إنها ستنقلب، لكن فيها الخير، اعتدلت وأخذت تضرب فى الرمال وهى تهتز إلى أعلى وإلى أسفل كأنها تريد أن تطير.. أما سيارات التويوتا الثلاث فقد اختفت وراء التراب.. لا يمكنها مجاراة الشاحنة هنا.. لكن الرصاص بدأ يتطاير من حولى مرة أخرى.. حسناً.. لكن حتى لو اشتعلت فيها النيران ما كنت لأوقفها. ساعتها تخيلت أنها غولة مندفعة بكل قوتها إلى الأمام وأنا متشبث بين قرنيها، هذا مصيرنا وليحدث ما يحدث.. قل استمر الجرى على هذا المنوال قرابة نصف ساعة كأنها دهر من الترقب. فى كل لحظة يرتطم رأسى بسقف قمرة الشاحنة أفكر فى أنها

رصاصة انفجرت في رأسي. أنتظر أن يسيل الدم.. أنتظر الموت يا أخوة، وأضغط على الدواسة أكثر.. بهذه الطريقة اقتحمت الأسلاك الشائكة المنصوبة حول مقر فرقتنا.. ربطت فرملة الشاحنة كأنني أشهق من نَفَس الحياة الجديد الذى عاد لصدرى، فدارت الماجروس دورة كاملة على إطاراتها العريضة وانهال فوقها التراب قبل أن تئن أنَّة أخيرة وتهمد".

انتظر الصابر قليلا قبل أن يخبرنا أن جنود الفرقة تعاموا على حدود المعسكر مع سيارات العدو التى كانت تطارده، وأن الجميع أصيب بالخيبة حين وجدوا صندوق الشاحنة فارغًا بلا مؤن.. لم يكن به سوى عدة خبزات وخزينة سلاح واحدة، ونحو خمس طلقات متناثرة.. لقد تسبب التشاديون في بعثرة حمولة الشاحنة في رمال الصحراء. وربما استولوا عليها أيضًا.

استشاط جبار غضبًا. بدأ يصرخ كوحش يريد الانتقام. رد عليه الصابر أمام الجنود في الساحة قائلا له في حنق وبصوت مرتفع إن الحرب انتهت، وأن المعسكرات الشمالية نسيت وجود فرقة على الجبهة التشادية من الأساس. وأن عليه وعلى الجنود وعلى جميع الفرقة أن تغادر فورا قبل أن تموت من الجوع وتقع في أسر التشاديين. لم يصدق جبار ما سمعه. ظل وجهه يزداد احمرارًا والعرق يتصبب منه. جن جنونه وانتفخت عروق رقبته وهو يدور حول نفسه بجسده الضخم قبل أن يتوقف ويقول للصابر بكلمة واحدة صارمة: خائن.. محاكمة عسكرية.

وما هي إلا دقائق ووجد الصابر طاولة خشبية منصوبة وسط الساحة وجبار يجلس خلفها وعدد من الضباط والجنود يقف وراءه. بدأ التحقيق بصوت فيه صراخ وشتائم وخبط على الطاولة. ثم صدر الحكم: إعدام رميًا بالرصاص.

روى الصابر ذلك وهو ينظر في وجه كل منا ليرى وقع الكلمة عليه. وقال:

- "قادني الجنود إلى غرفة من الغرف الطينية التي كنت قد شاركت في بنائها حين جئت لأول مرة لألتحق بالفرقة في بداية الحرب.. شعرت بالخطر، أي والله، لكنني قلت لنفسي لأصبّر روحي، ها قد حان وقت الموت، وما الموت إلا مصير محتوم لكل إنسان وحيوان ونبات على الأرض. ننتهي إلى الصمت مثل صمت الصحراء. ننتهي إلى رمال مثل رمال الصحراء. أقول لنفسي ذلك وأنا أعصر في قبضتي تراب الغرفة البارد. هذه ليلتي الأخيرة في الدنيا. في الصباح سأموت وكأنني لم أكن. مهزلة. تعيش وتجري وراء الآمال وتقول إن لم تتحسن الأحوال هذه السنة فقد تتحسن في السنة التي تليها.. كل منا ينتظر أحباءه على أمل اللقاء عاما بعد عام، بلا يأس، ودون أن تفكر أن كل شيء يمكن أن ينتهي في لحظة. كأنني ما عشت ولا حلمت يوما.. الحقيقة خفت. كل ما حولي اختفى مرة واحدة. أي والله يا أخوة..".

وفي محبسه المظلم في الليل سمع الصابر خطوات تقترب. عرفها. إنه القائد الغاضب بنفسه. فتح الباب. وسبقه جندي وضع

مصباحا في جانب الغرفة وأدى التحية العسكرية وانصرف. وقف الصابر أمام جبار. وبقيا صامتين هكذا.. هو يدير ناظريه على الجدران والصابر يتلو في داخله آيات من القرآن يحفظها منذ زمن، ليودع بها الدنيا. جبار مجنون.. يمكن أن يسحب المسدس من جرابه وينفذ فيه حكم الإعدام الآن. ظل يدور بعينيه إلى أن ثبتهما على وجهه، فابتسم الصابر أمامه لأول مرة. حين تكون النهاية يمكن أن تفعل ما تريد دون حساب. أخرج القائد علبة سجائر وأخذ يدخن في صمت في وقفته غير المفهومة تلك. وما لبث أن دك يده اليسرى في جيبه، وأخذ يخطو بين جدران غرفة الحبس كأنه وحده.. ثم توقف ونظر في عيني الصابر مباشرة للمرة الثانية، فخرجت من فم السجين ضحكة بلهاء متحدية.. قال الصابر:

- "قد ترون في حياتكم وجوها لا تذكرون من كل وجه منها غير أنف معقوف، أو شفة ملتوية أو عين دامعة. في تلك الليلة حيث نور المصباح في غرفة الحبس يلقي بظل جبار على الحائط الطيني، رأيت إلى أي حد كان جبينه عريضا يشبه الصندوق الفارغ. وإلى أي حد كان معتوها دون أن أكتشف ذلك منذ البداية.. خفت. قلت هل سيقتلني رجل مجنون في أقصى جنوب الصحراء العربية حيث لا هدف ولا حرب ولا حياة.. توقف جبار مرة أخرى وبدأ يسألني عن تفاصيل رحلة جلب المؤن الفاشلة. قصصت عليه مسيرة الرحلة بما فيها مقاومتي لرغبة الفرار إلى مصر. طلب أن أستزيد في الحديث عن تفاصيل الحال الذي وجدت عليه معسكر الإمداد الواقع جنوب سرت.. المعسكر

المختص بتوصيل الأسلحة والمؤن لفرقتنا منذ بداية الحرب. ثم رويت له إصرارى على عدم الاستسلام حين طاردنى التشاديون. أخذت أحكى له كل شيء كما حدث بالضبط. جلس على الأرض. برك مثل جمل، وبرك معه ظله على جانب الحائط وانخرط فى البكاء وجسده الثقيل يهتز. بكاء طفل فقد أبويه. قلت ها هو الآن أصبح يدرك الموقف السيئ الذى تواجهه فرقتنا المعزولة المحاصرة. أخذت أربت على كتفيه الكبيرين، وأنا أقول له: علينا أن نرحل.. ننسحب. علينا المغادرة من باكر. أى والله.. كان يئن ويمؤ بنعم نعم.. هكذا، يا أخوة، لمسنى الموت بإصبعه لكن لم أخف. تقدمت نحوه خطوة، فتراجع خطوات للوراء.. خرجت من حرب التشاديين كما دخلتها، مفلسا، ولم أكسب منها غير الوجع والهم وهدر العمر.. ولا أحد يعرف ما سيلقاه غدا. وتصبحون على خير".

عدل الصابر من الوسادة التى كانت وراء ظهره. أراح عليها رأسه وهو يستلقى فى مكانه. أطفأ العامل السورى المصباح لينام الجميع. ويقينى أن الصابر لم ينم تلك الليلة. قلت وأنا أحدق فى الظلام إنه بلا شك يفكر فى أمه التى تعاند الصحراء قرب مرسى مطروح وابنة عمه التى اختفت فى طرابلس منذ زمن. وسعل أحد الفلسطينيين. وشخر اللبنانى الراقد بجوار العامل المصرى البدين. ثم حل الصمت المطبق انتظارا ليوم عمل جديد وخوف متواصل من اعتقالات الأمن الليبى المتحفز ضد الأجانب فى ذلك الوقت.

**بنى غازى ١٩٩١**

# عـودة

باب انفتح.. خَطَتْ عتبةَ البابِ قدمٌ قرِحَتْ.. قَدَمٌ ارتعشتْ ومدتْ وجهًا كشفتْ فأصابعَ صديدَ عظمٍ ولحما منها اهترأ وصدأُ انتظارٍ تشقق.. عبَقتْ رائحةُ غيابٍ.. إذ سلَّم هزَّ ظلَّها ضوءُ بابٍ تأرجحَ.. ريحٌ تحركتْ.. شوقٌ امتدَّ فصمتٌ احتضنَ صمتا. ذراعان، فانحسرَ الرِّدنان، فيومُ لَهف.. فنادى ما نادى، ثم نادى..

موقدٌ ماتتْ نارُ مضجعِ ترابٌ غطَّاه عُشُّ عنكبوتٍ وحيَّةٌ امتصتْ حياةَ بيضةِ عصفورٍ.. أرجُلُ عقارب وسحالى نقشتْ أديما مسحتْ وطأةَ أقدامٍ نسجتْ خطوطَ رملٍ ريحٌ، فما ديكٌ صاحَ ولا نبحَ كلبٌ أو حمارٌ نهقَ..

قدمٌ خطتْ عتبةَ البابِ وقدمٌ ما خطتْ.. قدمٌ دَلَفَتْ فتموَّجَ حولها صمتُ السكونِ دائرة دائرة والجدران دائرة.. مسمارٌ كان

فستانُ طفلةٍ عليه معلقا سقطَ.. ضفيرتُها.. صندلُها ولُعبتها قلمُ رصاص وكراس.. ألوانٌ ورسمٌ وكتاب.!

قدمٌ خطتْ فتسمرتْ.. حذاءٌ أسود ثقيلٌ أصابعٌ فيه عَرِقَتْ، وتآكلت حولها جوارب صوفٍ فاسودتْ وتقرحت الأظافرُ والجلدُ تَهَرَّدَ..

حذاءٌ أسودٌ ثقيلٌ. خطا.. رباطٌ ارتخى؛ كعبٌ في رمل الدار انغرس.

جدرانٌ.. بابٌ.. ونافذة. خيوط ضوءٍ وظلُ شقوقٍ رطبة.. ابتسامةٌ اتسعتْ. أسنان سنين سبع.. فستانٌ سقط. رسمُ رصاص كراسْ.. قدمٌ عتبةَ الباب خطتْ، وقدمٌ ما خطتْ..

تعفنتْ الأصابعُ وحذاءٌ تعفَّن. أعوامٌ عبرتْ سرابا حرستْ.. أسلاكٌ بقيتْ سنابلَ دارٍ استلبتْ.. تقيَّح جرحٌ.. دمٌ سالَ تخثَّر، فصديدُ أصابعِ قدمٍ.. دلفتْ. صمتُ وحشةٍ ولَهْفٌ استعر. موقدٌ ماتت النار فيه.. قدحٌ مشقوقٌ.. فما ديكٌ صاحَ ولا نبحَ كلبٌ أو حمارٌ نهقْ.!

بابٌ انْغَلَق.. خَطَتْ قدمٌ سحبتْ وجها خارجَ عتبة البابِ اختفتْ.

**مرسى مطروح ١٩٩٥**

# حارة بلوبيف

أعادتنا شاحنة المساعدات إلى الحارة بعد أن وزعنا كراتين البلوبيف على الأحياء المجاورة. وكان نصيب شارعنا كرتونة كاملة؛ أى أن كل تسع أسر تقريباً ستشترك فى علبة بلوبيف. كانت الطريق خاوية حتى جاء الشباب والصبية يهرولون نحونا ونحن جلوس أمام الدكان، ومن بعدهم ظهرت دبابة ضخمة ثقيلة فوقها ماسورة طويلة. وحالما انعطفت من ورائها سيارة جيب مصفحة اجتازت الطريق مسرعة تجاهنا.

توقفت الدبابة منتصف المنحنى عند سور بيت الشهيد جبريل فى أول الحارة.. ماسورة المدفع دارت يميناً ويساراً ثم أخذت تحدقنا مفغورة الفم. كنا قد أخرجنا المعلبات من الكرتونة، وصففناها على أرفف الدكان المهجور، وكتبنا جوار كل واحدة أسماء أصحابها.

نزل ثلاثة جنود من الجيب، وأطلقوا عيارات فى أثر الأولاد الذين مروا متعثرين إلى حارة أخرى.

نظر إلينا الجنود الثلاثة مليا. رأينا التعب والجوع فى عيونهم المغروزة تحت الخوذات المستديرة. يبدو أنهم عقدوا العزم على مصادرة معلبات البلوبيف.

لكن الحجارة أخذت فجأة تنهمر على رؤوسهم من أسطح المنازل المجاورة، فاعتصموا داخل الجيب.

كان أحدهم مازال يحصى، على ما يبدو، المعلبات على الأرفف. نرى عينيه اللامعتين من وراء الشِّباك الحديدية التى تُحصِّن النافذة الزجاجية للسيارة العسكرية الصماء.

فكرنا نحن أن نغلق المحل، ونلجأ لبيوتنا هناك، إلا أن السيارة اندفعت مرة واحدة حتى اقتحمت ببوزها باب المحل، والتقت وجوهنا بوجوه الجنود الجوعى.

أشاروا لنا بعلامات تحمل الوعيد والتهديد. فهمنا أن علينا ألا نغلق الباب، وأن ننتظر حتى يتمكنوا من الترجُّل، والاستيلاء على معلبات الطعام.

ازداد عدد قوالب الطوب المهشمة، وأصبحت كالمطر ترتطم بصاج السيارة من كل جانب.

هدر المحرك، وهمَّ أحدهم بإطلاق الرصاص تجاه الصِّبية، إلا أن السائق استدار بالسيارة إثر هجوم كاسح من الأطفال والشباب الذين خرجوا من الأرض. أحاطوا بالعربة المصفحة من كل جانب؛

يقذفونها بما تطاله أيديهم من قضبان حديدية وحجارة وتراب وأحذية، حتى أفلتت. توارت وراء مدخل الحارة.

اهتزت ماسورة الدبابة قليلاً حتى أصبحت مصوبة علينا مباشرة، فلم نجرؤ على الحركة. هُنيهة وظهرت دبابة أخرى مثلها، فثالثة. امتلأت السماء بمروحيات الأباتشي، وبدأت الجدران تتهاوى. تحولت الحارة إلى علبة بلوبيف كبيرة.

**القاهرة ٢٠٠٤**

# ليلة بالألوان

كانت هناك بنت صغيرة تحب والدها ولا تفارقه أبدًا.. تقرأ معه الصحف، وتشاهد إلى جواره نشرات الأخبار. إذا جاء الليل، نامت على دفء أنفاسه مطمئنة؛ لكنها الليلة لم تنم. أغمضت عينيها.. بجانبها الأيسر غاصت فوق مرتبة السرير الطرية. أخذتْ تحدق إلى وجه أبيها الكبير، بشاربه الأسود، وشعر رأسه المنكوش على المخدة المبللة بالعرق. وفجأة حرك يديه الكبيرتين.. وبكفيه دعك عينيه، فخرجتْ منهما ألوان تليفزيونية مرتعشة.

وعندما مدَّد ذراعيه إلى جواره انتفض، وهو يتمتم، ثم همد كأنه مات.. لكن أصابعه الطويلة تشبثتْ بملاءة السرير، ولوثتها بالألوان المضيئة النابضة بالحياة.

وفي هذه اللحظة كان والدها ينام على ظهره وعيناه شاخصتان في سقف حجرة النوم المظلمة.. طبقات داكنة تضغط فوق بعضها البعض.. تطبق على صدره.. تخنق عنقه المستديرة. خيوط طويلة مشربكة ممتدة بطول الجدران.. خيوط ملونة تهزها ذبذبات الضوء.. ورؤوس ملقاة على قارعة الطريق تنزف، وفوقها تهوى الأنقاض مرتطمة في ضجيج أصم.

مدَّتْ البنت يدها تبحثُ عن جسد والدها.. غاصت أصابعها في لحم رأسٍ مهروس بالشعر.. بالدم معجون. دم أحمر، وأزرق، وأبيض.. هكذا الألوان تنبض ما بين سقف الحجرة وحواف المخدع، وسط الظلام المطبق والصمت المخيف. اهتزت الأرض.. اختلط الأنين بالبكاء.. والدها يحملها في حضنه مهرولاً..

يجري هو، وهي تبكي مذعورة.. المباني الشاهقة العارية من الأسمنت تتهاوى على جانبي الطريق الضيقة المعتمة، فإلى أين؟

يجري هو، وهي تتشبثُ في عنقه.. تصرخُ.. ترى وجهها يتفجر بالدموع والدم الأحمر.. ترى نزيف رأسها. وفوقها حوَّمت الطائرات تهز أسطح العمارات. دارتْ في لمح البصر، ودوَّت الانفجاراتُ.. سُحُبُ الدُّخان.. ألسنة اللهب تصاعدتْ من خلف الركام المتصدع.

من وراء كتف والدها يتخبط الأولاد والبنات وهم يفرُّون على غير هدى، فيتساقطون وراء الغبار الأصفر. المآذن وأبواق الكنائس نقلت على الهواء مباشرة صوت قارئ نشرة الأخبار.

نهض والدها من مرقده مذعوراً قابضاً عنقه وصدره بأصابعه الطويلة. أضاء النور، فأغمضت عينيها. سمعته يجرعُ الماءَ مستعيذاً مستغفراً. سألَ إن كانت مستيقظة.. تظاهرتْ بأنها تغط في نوم عميق.. أظلمَ الحجرةَ.. استلقى جوارها متقطع الأنفاس.. هنيهة وهمد كأنه مات!

تحدق البنت الصغيرة إلى وجه والدها الكبير بشاربه الأسود، وترفع يديها ضاربة الفراغ الثقيل الممتد بين السقف وحواف السرير.. كأنها تتقى الأنقاض والضجيج الأصم والغبار الأصفر!

*القاهرة ٢٠٠٠*

# عطيب البخت

كان عطيب البخت يعلم أن ثمة أشياء تتمرد، وأن الصراع بينه وبين البقرة حتما سيؤدى إلى نهاية مفجعة، بيد أنه لم يكن يدرى أن السحرة المختبئين منذ عشرات السنين فى جدران غرفته، ويخاف عليهم من جور الأثرياء، يمكن أن يخرجوا ليقفوا ضده. كان كل شىء يسير على ما يرام.. إلى أن فكَّر أبوه فى الزواج بعد وفاة أمه.. لم يكترث، ولم يفعل أكثر من أن حزن كما لو كان يحزن نيابة عنها. كان أبوه أرحم من هذا الذى يرغمه كى يخرج ليأتى بالبقرة.. كان أرحم بكثير حين ترك غرفة السحرة الأقدمين الملحقة بفيلا عبد الرحيم بك، وذهب مع زوجته الجديدة إلى حيث لا يدرى.. انتابت عطيب البخت سعادة مشوبة بالقلق فى البداية. وقال إنه سيحمى السحرة المختبئين فى جدران الغرفة من صاحب الفيلا الثرى المتغطرس.

وجد نفسه كمن يعيش معهم عوضا عن والدته التي ماتت هنا ووالده الذى هجره من هنا. أصبح وحده فى الحجرة مع الهدوء ومع كتبه المتراصة بأرجائها.. فى الليل يسمع السحرة وهم يلهثون من داخل الجدران خوفا من مؤامرات صاحب الفيلا ورغبته الدفينة فى مصادرة الحجرة وهدمها. كان يتلو عليهم ما تيسر من الكتب، ليخفف من فزعهم.. أبيات من الشعر أو مقطوعات نثرية من القصص والروايات أو آيات من كتب الدين. كان فرحا لأنه يحمى آخر من تبقى له فى هذه الحياة. إلا أن السعادة انقلبت فيما بعد إلى كرب وغم، ذلك عندما بلغه أن خطة عبد الرحيم بك اكتملت وأن البقرة حتما ستأتى والجرو لا بد من أن يشرب اللبن..

المهم ظل عطيب البخت قابعا فى حجرته بضعة أيام بعد زواج والده، ثم قال إنه لا مفر من البحث عن عمل لأن أباه مشغول بالإنفاق على زوجته الجديدة.. كما أن عطيب البخت يريد أن يدهن جدران الحجرة وينفض عنها الغبار لعل السحرة يستريحون من الخوف ويهدؤون بالا، فيسلونه بحكايات القدماء عن الحياة والحكمة من سعادة الفقير وشقوة الثرى.

صعد عطيب البخت درجات الفندق مترددا بعد أن ألقى نظرة فاحصة على السيارات الفارهة المصفوفة جوار المبنى. وقف أمام مدير الفندق. تبيَّن فجأة مدى رثاثة وقذارة ملبسه حين رأى ما يرتديه المدير ومساعدوه فى بهو الاستقبال ماسكين بكؤوسهم يحتسون ما يحتسون.. وقال لنفسه إن الأثرياء عادوا للتكاثر رغم الثورة. وقف

أمامه قليلا ولم ينبس بكلمة.. ثم فجأة انتابه إحساس لم يستطع كبح جماحه كالغريزة أو عزة النفس.. قال له المدير: ما بك يا بنى، لكنه لم يرد، كأن السحرة ربطوا لسانه..

انتهى الأمر بأن دار عطيب البخت على عقبيه خارجا لاعنا الفندق والعمل.. أغلق على نفسه حجرته لعله يسمع نصيحة جديدة من أصدقائه السحرة المحبوسين في الجدران، لكنه لم يسمع منهم شيئا فقال إنهم في نعاس القيلولة كالمعتاد. جلس أمام الحجرة حيث بدت أمامه الحديقة وخلفها فيلا عبد الرحيم بك.. استمر يفكر حتى وقت الأصيل حيث بدأت الطيور تملأ الفضاء زقزقة وهي عائدة لأعشاشها.. أتى الخادم الصغير، خادم عبد الرحيم بك، وناوله ورقة ومضى.. كان ثمة إحساس يؤكد أن هناك كارثة داخلها. حين فتحها وجد فيها ما يلى: "اترك الحجرة أحسن لك، ويوم الخميس ستجد أشياءك في الشارع إن لم تتركها طواعية". وكان اليوم الثلاثاء.. فابتسم ساخرا ودق على جدار الغرفة خلفه كأنه ينبئ السحرة بأن يوم المواجهة قادم وأن عليهم أن يستعدوا لمحاربة الشر معه..

تأمل عطيب البخت الورقة قليلا ثم مزقها وألقاها أدراج الرياح. دخل حجرته المنعزلة في آخر حديقة الفيلا. كانت الحجرة كما أخبره أبوه ملكا لعجوز تمارس السحر أنجبت فيها عشرين ولدا وبنتا علمتهم السحر قبل أن يموتوا جميعا داخل الحجرة ذاتها في الحريق الكبير الذى ضرب المدينة أيام ثورة الفقراء على حكام الأقاليم والأثرياء الفاسدين، وقد بُنيت قبل إنشاء الفيلا..

وحين كان عطيب البخت طفلا حكى له أبوه أن الحجرة تبدو أحيانا ضيقة خانقة وأحيانا واسعة مريحة وأن عليه ألا يخاف حين يكبر ويكون وحده فيها، لكنه تمكن وهو صبى، بعد وفاة أمه، من التقاط إشارات السحرة من جدرانها. تبدو حجرة عتيقة للغاية نسج العنكبوت خيوطا بين سقفها وفروع الشجر.. حيث باتت منعزلة عن الجمال والذوق والناس.. رغم ذلك أدرك كل من زارها أن هناك شيئًا غامضًا بين عطيب البخت وبينها. وكان البعض يقول إن السبب يرجع لتمسكه بها لا غير لأنه لا مأوى له غيرها.. أو ربما هى التى تتمسك به بسحرها.. أو لعل تلك الكتب التى تخصه وتخص السحرة الغابرين جعلته يعتصم بها وتتشبث به..

عندما دخل حجرته مساء الثلاثاء أغلق بابها القديم وركن إلى الطاولة الخشبية التى كان يتخذها كل من سكن الحجرة منصة للقراءة.. لم يبد له أن كل شىء سقيم. هناك أمل فى نهاية كل يأس.. أخذ كتابًا وشرع ذهابًا وإيابًا بين سطوره، وكأن شيئًا لم يحدث. كأنه لم يتلق إنذارًا من عبد الرحيم بك وبقرته القادمة وجروه المدلل..

فى الصباح وجد عطيب البخت نفسه قد نام ليلته جالسًا إلى الطاولة الخشبية العتيقة.. كان قد انتهى من قراءة الكتاب إلا قليلا دون أن يتذكر ما قرأ بالضبط، لكنه كان يعتقد أن تلاوته لما فى الكتب يريحه ويريح سكان الحجرة.. لكنه شعر أن شيئًا من القلق يدور بين الجدران. الشباك ينفتح وحده والريح تنفض الستارة.

تلبسته أرواح السحرة القدامى.. فتح الباب فجأة واجتاز الحديقة فى خطوات واسعة. ضغط جرس الفيلا. فتح الخادم حيث أذنت له امرأة من ضيوف عبد الرحيم بك الجدد بالدخول. حاول عطيب البخت أن يتذكر ملامحها لكنه لم يتعرف عليها. ومع ذلك كان يتكلم رغمًا عنه كأن به مسًّا.. قال لها:

- "أيتها السيدة أنا ساكن الحجرة تلك".

وأشار بيده إلى مكان قصى خلف أشجار الفيلا. وأردف، وكان خلال ذلك يسمع نفسه كأنه يتحدث بصوت شخص آخر لا يدرى من هو، قائلا:

- "أيتها السيدة.. أنا أسكن الحجرة التى فى آخر الحديقة.. وقد بلغنى أنكم تريدونها.. فهل أمهلتمونى حتى أتدبر فيه عملا ومسكنًا آخر يؤوينى أنا وكتبى والكتب التى تركها الأقدمون عهدة فى عنق والدى وفى عنقى".

وكانت المرأة خلال كلماته المشبعة بالرذاذ والغضب تعود بجسدها إلى الخلف خوفا من مظهره المرعب. قالت له:

- "الكلام مع عبد الرحيم بك.. ثم إن طعام الكلب.. الأطباء أوصوا باللبن..".

صمتت ثم استطردت:

- "لا بد من البقرة.."

تابع عطيب البخت المرأة بعينيه وهى تصعد بذراعيها العاريتين وبفستانها الأسود درجات تؤدى إلى طابق علوى.. بعد لحظات جاء

عبد الرحيم بك يحيطه الجلال والهيبة محتضنا جروا يختلط لونه الأسود بالأبيض قال مبتسما :

- "أهلا يا ابن عبد الله يا عطيب البخت .. لا بد أنك آت لتخبرني بطاعتك للأوامر .. إن أباك كان رجلا مطيعا" .

وعادت الكلمات تتدفق من فم عطيب البخت رغما عنه :

- "أيها السيد .. أرجو أن تتركني أتدبر أسباب المال ، وأبحث عن حجرة أخرى .. لا بد أن أنقل كتبي وكتب الأقدمين حتى لا تحدث لعنة للفيلا" .

قال عبد الرحيم بك مندهشا :

- "أي لعنة .. هذه لعنة على رأسك يا عطيب البخت يا قليل الأدب . ماذا تقول بصوتك الغريب هذا ؟ أم تراك جننت ؟ !" .

ثم أشار صوب الجرو الذى كان يهز ذيله فى حبور :

- "وشوشو .. شوشو ماذا يفعل .. ألا تعلم أن الطبيب قال إن علاجه فى الحليب ، وحليب البقر على الأخص .. أتريد أن يموت شوشو .. يا لك من قاس بقلب خالٍ من الرحمة . ألم يعلمك أبوك عبد الله الرأفة وحسن المعاملة يا عطيب البخت .. أجعل قلبك مملوءا بالرحمة وأترك الحجرة للبقرة .. أم أنك تريد أن يموت شوشو .. إنك قاس متوحش يا عطيب البخت .. دع البقرة تأتى ، وليشرب شوشو اللبن ويعيش .. لا تحزن يا شوشو ، ابن عبد الله غلبان" .

ونبح الجرو بصوت يشير إلى موافقته على ما قاله سيده . فأجاب عطيب البخت متهكما :

- "ليشرب شوشو اللبن ويعيش.. لنر إن كان هذا سيحدث. هه.. تحسب الأمر سهلا".

ترك عطيب البخت عبد الرحيم بك غير فاهم لسبب تحديه. وعندما عاد لحجرته جلس مجددا إلى الطاولة الخشبية المتهالكة. نظر صوب الكتب. فكر بصوت مسموع فى الظلام أن يبيعها جميعا لأى دكان قرطاسية، كأنه يختبر رضا ردة فعل السحرة.. مع ذلك انتابه إحساس أنه إن باعها سيكون كمن يبيع قطعة منه.. ورغم أن الجدران لم يصدر منها أى إشارة غضب إلا إنه عدل فى النهاية عن الفكرة.. وأسند رأسه على الطاولة ونام..

أيقظته زقزقة الطيور وهى تغادر أعشاشها بحثا عن الطعام صباحا. ظل حبيس الحجرة يتلو من كل كتاب قليلا من الكلمات بدون تركيز ويده ترتعش من الاضطراب. فالمواجهة قادمة بعد قليل. انتفض عند سماع صوت بالخارج أهتزت له أركان الجدران حيث قال:

- "افتح الباب..".

ظل واقفا وسط حجرته مرتعبا ينتظر خروج السحرة لنجدته والقتال معه.. برهة ثم سمع خوار بقرة وهمهمات. فجأة دفعت الأيدى الباب المتهالك فسقط حطاما. دخل رجل ضخم قبيح السحنة وجذبه للخارج وألقاه أرضا.. ورمى فوقه الكرسى والطاولة والفراش. ثم شرع يطوح الكتب خلفه، وعطيب البخت يحاول عبثا الاستنجاد بسكان حجرته غير المرئيين. نهض وجرى تجاه

الباب، لكن الرجل الضخم صده وحمله وطوحه بعيدا.. كانت ثمة قهقهات وسيارة عبد الرحيم وكلبه فانتفض يسبه ويلكمه وهو يتوعده بخروج لعنة السحرة للفتك به حتى سقط.. لكنه لمح بطرف عينه الساحرة وأطفالها وقد خرجوا من الجدران وأخذوا يساعدون الرجل الضخم فى رمى الكتب وما تبقى من متعلقاته، من الباب والنافذة، وهم ينظرون إليه فى سخرية بينما هو يتلوى على الأرض..

بعد لحظات أتت سيارة الأمن برجالها، واتجهوا نحو عطيب البخت الذى كان مازال يحاول لم الكتب المبعثرة.. البقرة ساعتها كانت متأهبة لدخول الحجرة، وأخذ رجال الأمن يجذبونه وهو يتمرغ ويصيح إلى أن تلاشى الصوت.

**مرسى مطروح ١٩٨٤**

# طحالب

مروة اختفت حين كان أخى عبد الله مسافرا للخارج. لم يكن أهلها الصعايدة يعلمون بزواجه منها. سارعتُ بإغلاق دكانى لبيع أدوات صيد السمك فى شارع شمبليون، وقررت البحث عنها. عجيب أن تختفى من على مواقع الدردشة على الانترنت وتغلق هاتفها المحمول.

كنت أخاف أن يعود عبد الله فجأة للقاهرة، ويكتشف، حين يسافر إليها، إهمالى لها. أخذت الجهاز الجديد الذى صنعته ويشبه خياشيم الأسماك. وقفت على مرسى النيل أمام مبنى ماسبيرو. سددت أنفى بالخياشيم الصناعية، وغطست إلى الأعماق. توكلت على الله فى رحلة، عكس التيار، إلى الجنوب.

المياه من تحت ذات لون أخضر داكن، مزدحمة بالطحالب والقراميط. وبين حين وآخر أتعثر فى جثة، فتستيقظ وتنظر نحوى ببلاهة والماء يملأ فمها. وكانت بعض الجثث تمد يدها تريد أن تقول شيئا.

وبطبيعة الحال كنت على عجلة من أمرى. أشعر بأن الشمس ما زالت تشرق فوق النيل، فأواصل الزحف على بطنى ضاربا الماء الثقيل بذراعى. وحين تتحول أعماق النيل إلى لون أسود قاتم، أعرف أن الليل جاء، فأنظف خياشيمى، وآكل قرموطا صغيرا، وأنا أتبادل الكلمات المقتضبة مع بعض الجثث المشوهة. أسند ظهرى على صخرة مغطاة بالطحالب الخضراء وأنام، لأواصل رحلتى فجر اليوم التالى..

فى إحدى الليالى، وكنت راسيا تحت ماء النهر، تقريبا جوار حدود بنى سويف، من ناحية الجنوب، اقتربت جثة تملأها ثقوب الرصاص. وعرَّفت نفسها، وكيف تعرضت للقتل، فى اشتباكات ثأرية بالأسلحة الرشاشة.

وبدأت الجثة، وكانت لصياد سمك فى الثلاثين من عمره، تسخر من اعتقادى أن جهاز الخياشيم الذى صنعته هو الأول من نوعه فى مصر. ومن خلال التسامر مع الجثة، حول تلوث أسماك النيل بمخلفات الصرف الصناع والصحى، وبينما كانت الأسماك الصغيرة والديدان المائية تخرج وتدخل من ثقوب جمجمة الجثة وصدرها، شعرت أن هذا الجسد الميت يعرف بطريقة ما إننى فى طريقى للبحث عن مروة فى مدينة المنيا. شعرت بالخوف، لأن مروة تزوجت عبد الله فى السر، وهى تتواصل معه عبر الانترنت فقط،

وهى حامل منه أيضا، لكنها أخفت مضغة حملها فى ملف وأخفت هذا الملف على القرص الصلب.

وإذا كانت هذه الجثة عرفت بالقصة، فلا شك أن المنيا كلها على علم بالواقعة، وبالتالى ارتعبت أكثر، وقلت ربما قتلوها، وربما سأجد جثتها هنا بين جثث قتلى الثأر والشرف ومكافحة الإرهاب وحوادث الطرق. فماذا سأقول لعبد الله.. وجلست أبكى، وبينما الدموع تختلط بالمياه السوداء، انزلقت جثة الصياد فى هدوء لتواصل رحلتها النيلية وصولا إلى الدلتا ثم البحر المتوسط، فالآخرة المنتظرة.

حين اقتربت من المنيا، بدأت أتحسس الطريق إلى أقرب نقطة من بيتها.. وفى المساء تمكنت من تحديد مكان غرفتها. وقررت أن أدخلها فجرا.

للغرفة نافذتان تمر المياه من جانب وتخرج من الجانب الآخر. غرفة معزولة كأنها مكتفية بذاتها، وتقف على جذوع رخوة لنباتات مائية ذات أوراق عريضة تشه أوراق نبات ورد النيل. وفى الليل، ومن بين الأغصان الملتفة حول جدران الغرفة، رأيت جهاز الكمبيوتر الخاص بها منطفئا على منضدة خشبية. والمقعد الذى طالما جلست عليه للتحدث مع عبد الله عبر الانترنت، خاويا.

رائحة مروة كانت هنا. كأنها تركت الغرفة حالا. انتظرت قليلا لكنها لم تعد. وكانت أقرب طريقة للاطمئنان عليها، قبل أن يفضحنى الصباح، فتح جهاز الكمبيوتر وإلقاء نظره على آخر ما كانت تفعله على الجهاز وعلى الانترنت، وما إن كانت قد اتصلت بعبد الله أخيرا.

حين أضاءت الشاشة، سرى النور الأزرق فى المكان، وبدأت القراميط تتقافز من مخابئها الطينية، كما لفتت الأضواء انتباه بعض الجثث الطافية التى فتحت أعينها وشرعت تواصل جدلا فيما بينها عمن سيدخل الجنة، المسلمون منهم أم المسيحيون. ودون أن أحسب حسابا، تسببت الضجة فى استيقاظ أهل بيت مروة.

وفجأة التف حولى خمسة رجال بملابس زرقاء وصفراء وسوداء. سألوا فى نفس واحد: أنت عبد الله أنت غررت بابنتنا وتزوجتها فى السر، يا ويلك، سنقتلك الآن. وأخذوا يتصايحون على باقى أقربائهم ليأتوا بالأسلحة الرشاشة.

بدأت أدافع عن نفسى. أخبرتهم أننى بائع أدوات صيد سمك من القاهرة، ضللت طريقى وأنا أجرب جهاز الخياشيم الجديد الذى اخترعته الأسبوع الماضى. لكن للأسف، كل منهم أشار إلى أنفه، وقالوا فى صوت واحد: أها.. نحن أيضا لنا خياشيمنا، وهى أرخص ثمنا من خيشومك لأنها مستوردة من الصين. اعترف.. من أنت.. أنت عبد الله، وسنقتلك، لكن عليك أن تخبرنا عن مكان ابنتنا مروة، وإلى أين هربت بها، يا عبد الله، يا كلب.

وفى أثناء هذا كان عدد كبير من القراميط والأسماك الصغيرة والجثث يملأ الغرفة. وظهر عمدة صعيدى يعتمر عمة كبيرة، يمسك بعنق شاب ضامر. أسكت العمدة الجميع، وقال إن هذا الشاب يعرف فى الكمبيوتر والانترنت، وقادر على اختراق كلمات السر والتنقيب فى الملفات المغلقة ليعرف إن كانت لى صلة بمروة وعبد الله، أم لا.

وكان أول ما فتحه نافذة الدردشة على الهوت ميل. ولحسن الحظ لم يكن فيها أى شئ يتعلق بى أو بأخى عبد الله. كان آخر حديث لابنتهم هنا، لصديقة لها: أنا راحلة. لكن حظى لم يكن حسنا على طول الخط، لأن الشاب شرع فى فتح البريد الالكترونى لمروة.

رسالة من عبد الله: "زوجتى العزيزة مروة، إذا شعرتى بأى مضايقات من جانب أسرتك، فاهربى، ولا تترددى.. اركبى القطار واهربى عند أخى بائع أدوات صيد السمك فى شارع شمبليون بالقاهرة. وعلى أية حال هو سيتصل بك بين الحين والآخر.. مع حبى".

رسالة من مروة إلى عبد الله: "لم أعد أحتمل البقاء هنا.. سجنونى فى غرفة معلقة تحت الماء. حفظت مضغة الجنين فى ملف مضغوط على الأتاتش داخل بريدى الالكترونى.. قررت أن أهرب الليلة إلى أخيك فى شارع شمبليون".

هنا صاح العمدة وهو يشير نحوى: "إذن هذا شقيق عبد الله.. امسكوه لتصلوا لابنتكم المجرمة والمجرم الذى غرر بها"..

واندفعت إلى أعماق النيل لأخفى نفسى فى الطين، وأزحف إلى الشمال، وكان صوت الرصاص يتكتك من ورائى، وهم يشقون الماء لملاحقتى، ومن ورائهم يدفع التيار بجثث وقراميط وطحالب.. وهياكل لا لون لها.

*القاهرة ٢٠١٠*

# رغاوى حمراء

حتى حينما انتقلت للعمل فى ضاحية فقيرة أخرى لم أنس ما حدث. كان الناس على المقهى يعرفون حكاية الرجل، الذى أصبح غسالة بمروحة، تخرج منها رغاوى حمراء تصدر أنينا..

يدخنون الشيشة ويقولون، بعدما تحوّل لشكل برميلى غريب، إن هذا بسبب حبه الشديد لزوجته، وشعوره بالعار لفقره وضياع مدخراته.

أعملُ منذ سنوات محصلا لفواتير الكهرباء فى منطقة النهضة شرق القاهرة. أمرُّ كل يوم، عبر الطرقات الترابية وأكوام القمامة، بين عمارات مطلية بلون أصفر منطفئ كئيب. وفى الخلفية يتسكع لصوص وكلاب وفقراء.

الرجل تقدم فى السن حتى بلغ عامه الستين دون أن يعثر على عمل أو ينجب أطفالا.. أجالسه قليلا فى شقته بالطابق الثانى..

واحدة من شقق إيواء المنكوبين مكونة من غرفة وصالة ضيقتين، وحمام ومطبخ صغيرين.. ذلك قبل أن ينتفخ قلب الرجل ويكبر، ويحوله أحد الأطباء غير المتخصصين، لغسالة تشبه البرميل تعمل بالكهرباء.

حين أطرقُ باب الشقة، يفتح لى الباب. لا نتحدث عن فاتورة الكهرباء الجديدة، التى تصل قيمتها عادة لعشرين جنيها. لم يكن معه نقود. يشعر بالوحدة الشديدة بسبب غياب زوجته عنه طيلة النهار. لهذا أصبح ما يحدث هو الآتى: يفتح الباب الخشبى الذى يعشش عليه العنكبوت، يبتسم بوجه جامد كوجه الجرو، بينما آثار الدموع بادية على وجنتيه المنطفئتين. أقول: الفاتورة. فيقول: أدخل، كأنه يعوى من الألم.

على مدار سنوات أصبحتُ أستمع يوما بعد يوم لقصة حُبه لزوجته، وكيف أنه لا يستطيع تحمُّل غيابها عنه ولو للحظة. يغمض عينيه.. يتحدث عنها كما يتحدث طفل عن أمه، وأنها بالنسبة إليه كالنسيم. إذا غابت عنه يختنق. ثم يبكى مصدراً صوتًا كصوت كلب ضرب بحجر فى ساقه.

من قبل كانت منطقة النهضة كلها تسمع عواء الرجل وصوت نحيبه.. بكاؤه يعلو حتى يصل للجوار.. أى لضاحية القاهرة الجديدة الثرية بالملاهى وقصور الأغنياء. للأسف؛ استخدم رجال أعمال وأولادهم وبناتهم، نفوذهم، وهم يلعبون على النجيلة الخضراء المروية ويشربون الويسكى ويدخنون السيجار، للتخلص

من سحب الحزن التى تكسو مروج الجولف والتريض، بفعل نحيب الرجل.

على هذا استدعاه مأمور شرطة الناحية. حبسه خمسة أيام.. جعله يوقع على تعهد بأن يكتم نحيبه فى صدره.. يبكى، نعم، لكن فى داخله. استمر عدة أشهر على هذا الحال.. أخذ قلبه يتضخم وينتفخ فى صدره ممتلئا بالحزن والدموع.

زوجته اعتادت أن تجدنى أخفف عنه عذابه فى أمسيات الخريف المقبضة. تدخل.. تأخذه فى حضنها. تقول له: يا حبيبى، يا قرة عينى، يا ولدى الصغير.. أعلم أننى أعذبك بغيابى عنك.. لكن ماذا أفعل، لا بد من أن يعمل أحدُنا، حتى نجد ما نأكله.. ثم تشرع فى الضغط على صدره بالضمادات، لتخفف انتفاخ قلبه الذى كان يكبر ويكبر، ويدفع عظام صدره إلى الخارج.. حين يهدأ، يهز ذيله فى أنين خافت يعبر عن الوجع.

تقول مبررة لى عظيم حزن زوجها: هو صعيدى، من المنيا.. والمنياوى يكره أن تخرج زوجته للعمل، بينما ينتظرها فى البيت.

تدافع عنه، وهى تقدم لى الماء البارد من إناء فخار على حافة نافذة محطمة الزجاج: فى شبابه كان حصانًا.. يحمل أكياس الأسمنت وقوالب الرخام إلى الطوابق العليا.. لقَّبه مقاولو الأنفار فى الضواحى المجاورة بالحصان. كل الطوب والأسمنت والحديد والسيراميك.. كل ما بنيت به المبانى رفعها حصانى فوق كتفيه.. كان ينفق على البيت؛ بيتنا، ويرسل لشقيقيه فى المنيا أموالا أيضًا،

لينفقوا منها نصيبًا ويدخروا له منها نصيبًا.. مرة خمسة جنيهات.. مرة عشرة جنيهات.. مرة عشرين جنيها..

حين تنهمك في تطييب خاطر زوجها، أجلسُ جانبًا وألمح من شقوق النافذة أطفالا بلا سراويل هائمين وسط الكلاب على أكداس القمامة. أشعل سيجارة مفكرًا في حال هذين الزوجين، وفي حال ضاحية النهضة البائسة.. أسمعها تقول له كأنها تخاطب طفل: يا رجلي، يا سندي، الدنيا حطمتك.. أنا هنا جوارك، لا تزعل، أحضرت لك فولا وخبزًا.. وسأعطيك جنيها لتروح عن نفسك في المقهى.

على الجدار تتحرك ظلال الزوجة، وهي جواره جالسة لا تتوقف عن الكلام.. بينما المصباح يضيء الجانب الآخر من جسد الرجل طريح الفراش منتفخًا كبرميل..

رجُلُها كان يحلم بفتح كشك لبيع السجائر والحلويات من مدخراته حين يكبر. مرت السنين سريعًا. وبعد سقوطه عدة مرات، من الطوابق العليا، بما يحمله من أسمنت وطوب، أدرك أنه تجاوز الخامسة والخمسين، فأرسل لشقيقه أن يأتي له بما ادخره، ويقضي معه عيد الفطر، لكن شقيقه احترق بالأموال في القطار قبل أن يصل إليه..

وحين لحقه شقيقه الثاني بباقي مدخراته، وليقضي معه عيد الأضحى، احترق هو الآخر بالأموال في القطار قبل حتى أن يصل إليه..

هنا شعر الرجل بالضياع.. تبدد حلمه نهائيًا فى أن يكون قادراً فى أى يوم، مما تبقى من أيام حياته، على الإنفاق على البيت.

زوجته العاقر، هى ابنة عمه.. آخر من تبقى له فى الحياة، بعد انقراض أسرتيهما بسبب الثأر وحوادث الإرهاب والنقل على الطرق والسكك الحديدية. أخذت الزوجة زمام المبادرة.. باعت مصوغاتها، خاتم الزواج وقرطًا صغيراً.. اشترت الغسالة الوحيدة التى كانت تملكها أسرة مقاول أنفار فى النهضة.. غسالة أكلها الصدأ من أطرافها؛ تشبه برميلا متوسط الحجم.. تضع فيها ملابس الجيران الفقراء. تملؤها بالماء.. تفرك عليه قطع الصابون الرخيص.. توصلها بالكهرباء فتدور مروحة فى قعرها، لتغسل الملابس مصدرة صوتًا يشبه محرك سيارة قديمة.

ذاع صيت الزوجة وغسالتها العجيبة المركبة على ثلاثة إطارات صغيرة. أصبح الموظفون والعمال يطلبونها ليريحوا زوجاتهم من عناء غسل الملابس والبطاطين والمفارش.. تخرج مع البكور تجر غسالتها فى شوارع النهضة بين عمارات الإيواء وبيوت مجاورة مبنية على عجل بلا طلاء. لا يتجمع فى يدها ثمن الخبز والفول وإيجار الشقة وفواتير المياه والكهرباء إلا بالعمل حتى وقت العشاء.

ساءت حالة الرجل.. كان يشعر بالعار، بالخوف من أن يغوى أحدٌ زوجته، مع ثقته فيها. بالكاد يشد ثوبه الأسود، ويسند بدنه على حافة السرير. يقول: لو تركتنى أموت.. ليس لى غيرها.. هى

أمي وابنتي وزوجتي وأختي.. يا إلهي، هي الدنيا.. إذا خرجت من الشقة في الصباح أشعر أن الدنيا أظلمت، وإذا عادت في المساء أرى الشمس وقد أشرقت.

ظل الرجل على هذا الحال من العذاب. زاد شقاؤه حين منعته الشرطة من العويل والبكاء.. ظل ينتحب إلى الداخل وجسده يهتز.. برزت شحوم قلبه من بين أضلاع صدره.. هكذا ظل عاكفًا في البيت..

في ذلك الوقت كنت أمر عليه يوما بعد يوم. عقب تحصيل الفواتير من بعض شقق النهضة الواقعة في صحراء جرداء خلف جبل المقطم شرق العاصمة.. أمضي معه ما تبقى من نهار. كان عدد من أهل النهضة الفقراء يشترون له أقراص الطعمية الساخنة، لكي يفرح، لكن دون جدوى.

ظل الأمر يحرق قلوبنا من الحزن، حتى جاء طبيب الناحية، وهو طالب قديم لم يكمل تعليمه في معهد لصيانة السيارات منذ عشرين عامًا.. كان يعالج مرضى السعال والمفاصل والتليف الكبدي، بزيوت سوداء لا يعلم إلا الله من أين يأتي بها.. تفحص الطبيبُ الزوجَ الذي كان يوشك على الانفجار، وصاح: وجدت العلاج، لكن قبل أن أجري العملية، يجب على الزوجة أن تكتب موافقة بذلك، مع ما يمكن أن يترتب عليه من آثار.

لم تكن الزوجة هنا، فوقّعت جارة لها على الإقرار بدلا منها. انفرد الطبيب بالرجل دخل غرفة النوم، وشرع في العمل. زوجته

انخرطت فى بكاء مرير حين عادت.. جلست جوار غسالتها، وجلسنا معها على باب الغرفة، فى انتظار انتهاء العملية الجراحية.

بعد مرور ثلاثة أيام فتح الطبيب الباب.. يجر وراءه غسالة جديدة مركبة على أربع إطارات صغيرة. قال مبتهجا، وهو يمسح يديه من الدم والمسامير، فى فوطة من فوط مسح السيارات: العملية نجحت. لدينا عدة امتيازات هنا: يمكن لزوجته أن تصطحبه معها للعمل، أينما ذهبت، وتغسل داخله الملابس أيضا. والآن من سيدفع لى أجر العملية.

حوّل الطبيب الرجل إلى غسالة.. شرح لنا، سريعا، كيف طوى لحم الزوج وعظامه داخل ألواح من الصفيح. وبيّن كيف ثبّت قلبه المنتفخ فى قعر الغسالة التى كانت تشبه البرميل أيضا.. وأشار إلى داخل الغسالة ليرينا المروحة الجديدة التى ستنظف الملابس كما لم تنظفها أى غسالة من قبل.

وتحسستُ فى جيبى الأموال التى جمعتها اليوم من تحصيل فواتير الكهرباء. وخفت من عيون هؤلاء الفقراء المتجمعين حول طبيب الناحية.. كنت أرى فيها رغبة تريد أن تقول: أقرضنا مما معك من أموال الحكومة لسداد أجر العملية. لكن زوجة الرجل أنقذتنى من هذه الورطة، حين عرضت على الطبيب أن يأخذ غسالتها القديمة، بعد أن أصبح لديها غسالة جديدة. فرح الطبيب، وجرها وراءه ومضى.

عمت الفرحة الجيران. جاء كل منهم بما لديه من طعام فى بيته. فرشوا حصيرة مهترئة بجوار الرجل الغسالة، الذى كان يقف على إطاراته نابضا بالحياة فى الصالة.

التفوا حول أرغفة من الخبز الرخيص وأقراص الطعمية والبصل.. قال أحدهم علينا أن نجرب الرجل الغسالة قبل أن نأكل. جلب كل منهم ما لديه من أسمال متسخة.. ألقوها فى قعرها. سكبوا عليها الماء. فركوا فوقها الصابون، ومع دوران مروحة الغسالة، بدأت الرغاوى البيضاء ترتفع وترتفع، ثم، مع استمرار دوران المروحة، بدأ اللون يتحول إلى الأحمر، كلون الدم.. كل فقاعة من هذه الرغاوى الحمراء تئن وتتوجع وتصدر صوتا مثل صوت جرو خائف..

فيما بعد نقلتنى مصلحة الكهرباء لتحصيل الفواتير من ضاحية فقيرة أخرى تدعى عزبة خير الله جنوب القاهرة. كنت كلما مررت على غسالة من تلك التى تشبه البراميل أتوقف قليلا لعلى أرى فقاقيع حمراء فى رغوة الصابون المنتفخة.

***القاهرة ٢٠٠٩***

# المحتوى


- حكاية سالم ..... 7
- غنى سكت ..... 17
- تل إمحيميد ..... 19
- لوزة ..... 23
- رتابة ..... 31
- نجمة القمر ..... 37
- اليوم قبل الأخير ..... 51
- جبار القائد ..... 59
- عودةٌ ..... 89
- حارة بلوبيف ..... 91
- ليلة بالألوان ..... 95
- عطيب البخت ..... 99
- طحالب ..... 107
- رغاوى حمراء ..... 113

**للنشر في السلسلة :**

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

## إصدارات

## سلسلة حروف

1- اليوم الذى.. بدأ ........................ عطية معبد

2- أو ما يشبه العشق.................... فدوى حسن

3- ناسي حاجة.............................. السعيد المصرى

4- حكايات من بلاد البمبوزيا.............. محمود سيف الدين

5- أعمى يقرا كتابه.. بتصرف............. محمود الحلوانى

6- كتاب السطور الأربعة................... حمدى الجزار

7- حبيبتى مروة............................ نصر عبد الرحمن

8- مسامرة جيدة لأرق طويل.............. عصام الزهيرى

9- نظرة تانية للملامح ع الخريطة ............ محمد ربيع محمد

10- فى المستقبل القريب جداً .................. هشام محمود

11- للموت سُمْعَةٌ سيّئةٌ ........................ سالم أبو شبانة

12- قريتنا تصنع أسطورة .................... محمود أبو راجح

13- امرأة فى المنام .......................... محمود أبو عيشة

14- بنات قِبْلي ................................. ماهرمهران

15- خذ كتابى بيمينك ........................ سوزان عبد العال